بين يدي أستاذي

"فلسفة التفكير خارج الصندوق"

دار نهضة مصر للنشر

د . إيهاب فكري

د.إيهاب فكري

بيد يدي أستاذي

تمّ إنتاج الكتاب الإلكتروني من قبل Hekayh
نشر الكتاب الإلكتروني 2017 ب Booqla
نشرت بواسطة دار نهضة مصر للنشر
حقوق التأليف والنشر © بواسطة دار نهضة مصر للنشر

حق النشر

بين يدي أستاذي
«فلسفة التفكير خارج الصندوق»
تأليف: د. إيهاب فكري
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم
جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.
الترقيم الدولي: 978-977-14-4657-6
رقم الإيداع: 2013/21684
الطبعة الأولى: يناير 2014

دار نهضة مصر للنشر

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

إهداء

إلى كل من ظَنَّ أن الطريق مَسدود
أو أن الأمل مَفقود..

أهـدي هذا الكتـاب

إيهـاب فكـــري

بَين يَدَي أَستَاذِي

جلست بين يديه في أدب وقلت: «سيدي، وهل من مُنتَصِر في أوقات الفتن؟»..

فقال: «نعم يا ولدي، من عارض فلم يذبح، وناصر فلم يجرح، وحايد فلم يجنح، كان ذلك هو المُنتصر على نفسه، واعلم يا ولدي أن جميع معاركك هي في الأصل مع نفسك، فمن انتصر على نفسه كان إن شاء الله من السعداء الناجحين الفائزين»!

هذا هو أستاذي.. يتحدث دائمًا بالمختصر المفيد، كلامه قليل ولكنه في الصميم، لن أنسى ذلك الصباح الجميل الذي دعاني فيه للتعلم على يديه، فهو الذي يختار جلساءه ولا يسمح لدخيل أبدًا أن يجلس بين يديه، ويا له من شرف ويا لها من مصادفة، فقد كنت أسأل الله تعالى في دعائي: «اللهم اجعلني مطلوبًا لا طالبًا»، لا أعرف أصلًا لذلك الدعاء، ولكني نشأت عليه وتربيت، فعودني ربي بكرمه أن يطلبني الناس فأذهب إلى بعضهم، ولطالما تمنيت الجلوس بين يديه لأنهل من علومه وفنونه، كان أملًا بعيد المنال، ولكن ربي أكرم وأقوى من أبعد الآمال.

كنت في ذلك الصباح الجميل أسير بين أشجار إحدى الحدائق العامة فوجدته بجواري، هو.. هو.. الأستاذ بنفسه، يبتسم وفي عينيه العميقتين القديمتين نظرة فيها مساندة الأب وحِنّية الأم وقُرب الصديق ووقار الأستاذ، لم أنطق بكلمة، ولا هو تكلم، إلا أنه دَلَّني على الطَريق، فذهبت إليه، وتغيرت حياتي!

علمني أستاذي أن المُلتَفِت لا يَصل، ولكني دائم الالتفات عن الأهداف وكثيرًا ما ضللت الطريق.. علمني أن البكاء غسيل الروح، وأنا أكاد لا أبكي.. علمني ألا أمشي بين الناس كاشفًا للعيوب ولا كاسرًا للقلوب، قال:

«يا ولدي، لا تنصح الناس أمام الناس، فإن ذلك ضد الصدق والإخلاص، من نصح في السر فقد نصح، ومن نصح في العلن فقد فضح».. وأنا كثيرًا ما كشفت العيوب وكسرت القلوب، أُذَكِّر نفسي دائمًا بأنني لا أستحق الجلوس بين يديه، ولا أعرف سببًا لصبره عليَّ!

ولكن ربي كريم

أسمع كلامه وأتحرك به بين الناس بطريقتي فيعتقدون أنني صاحب المعاني، وما أنا إلا ناقلٌ لها، أسمعها منه وأظل أرددها على نفسي حتى تصبح جزءًا من تكويني، تجري في دمي، ثم أجلس بين الناس، فما إن أفتح فمي لأتكلم حتى تنطلق منه كلمات أستاذي وقد ارتدت ألفاظًا جديدة تناسب السامعين، كم تمنيت أن أنقل كلمات أستاذي كما هي، ولكنه يتكلم معي بلغات عديدة، وكثيرًا ما يكتب العبارة، مرة شعرًا ومرة نثرًا وأحيانًا بالإشارة.. أستاذي بحر من العلوم والفنون، وأنا أقف على شاطئه أخاف الغَرَق، فإذا ما أصابتني قطرات من تلاطم أمواجه ذهبت بها بعيدًا فرحًا وكأنني امتلكت الحقيقة الكاملة، ولكني لا ألبث أن أعود فأجلس بين يديه لأرى حقيقتي.. طفل يلعب على الشاطئ!

في يوم ضاق بي الحال، شعرت أنني منتهٍ لا محالة، تُعرَض عليَّ المشكلات فلا أجد لها

حلًّا، وأنا الذي كنت أشير على الصغير والكبير، ماذا حدث لي؟ أصبحت لا أرى إلا الظلام، وكأن الكون يضيق عليَّ كالقبر الذي تختلف فيه أضلع الغافلين..

ذهبت إليه كثيرًا ولم أجده، أحسست بالضياع، أذَّن الفجر فقمت إلى الصلاة، رفعت يدي ودعوت: (رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ).. «اللهم إني أعوذ بك من فجأة الشر وتحول عافيتكَ».. جلست في أذكار الصباحَ أسأل ربي الفرج وكشف الهم، لا أعلم تمامًا ما الذي حدث، ولكني فجأة فقدت مهاراتي. وفقدت الأمل!

كنت قد تلقيت دعوة للتشاور مع أصحاب القرار، ذهبت واستمعت إليهم، سألوني، كما سألوا غيري، عن رأيي في أصل المشكلة التي تمر بها البلاد، تحدثوا عن دائرة العنف وعن السبيل للقضاء نهائيًّا على الفوضى والعشوائية وسوء الإدارة وعدم الاستقرار.. ولكني لم أتكلم، فاقد الشيء لا يعطيه، وجدتني خاويًا، لا فائدة من الكلام، لا شيء يحدث، لا شيء سيحدث، الكلام لا يفيد، الكلام لن يفيد، شعرت بالملل فاستأذنت وانصرفت قبل نهاية الاجتماع، عدت إلى بيتي، قالت زوجتي وقد قرأت حالي على وجهي: «الحل في السفر، خلينا نلحق ولادنا»، ولكني لم أتكلم، لأول مرة يتملكني اليأس، أهو حال البلد أم أن رصيدي قد نفد؟ ذهبت مرارًا وتكرارًا لأستاذي فلم أجده، هو عادةً الذي يطلبني للقائه، ولكنه لم يطلبني بعد، غالبًا عرف حقيقتي، عرف أنني لا أستحق صحبته!

ولكن ربي كريم.. جاء الفرج فجأة.. واستدعاني أستاذي

الحمد لله!

لا أذكر متى تحديدًا استدعاني ولا كيف، ولكني جلست أخيرًا بين يديه، شكوت له حالي وحكيت، أخبرته أنني أريد لبلادي الخروج من هذه الحالة العبثية، أعرف أن المشكلة هي في سوء الإدارة، وأعرف أن الحل لا بد وأن يكون في حُسن الإدارة، ولكني فقدت مهاراتي، لا أعلم من أين أبدأ، انتشر الفساد والجهل والمرض في بلدي كما ينتشر السوس في جوال الدقيق، سألته مرارًا وتكرارًا: «بالله عليك سيدي، من أين أبدأ؟» أشعر بالعجز والخجل، أعيش في دوائر مفرغة ولا أرى فيها أملًا، الحل قد استعصى عليَّ، وهل هناك حلٌّ في الأساس؟

هل كتب عليَّ أن أعيش وأموت ومن بعدي أبنائي وأحفادي بينما بلدنا يخرج من كبوة ليدخل في كبوات؟ إلى متى تتشابك فيك يا بلدي المشكلات وتتعقد الأزمات؟ وأنا لا أفعل شيئًا.. أشعر بخذلان الابن الذي فشل في بر أمه، أشعر بضعف الأب الذي عجز عن السعي على خبز أبنائه، متى الخلاص؟

سألته وألححت عليه في السؤال: «ما العمل؟ وهل هناك عمل؟ وهل هناك، سيدي، أي بارقة أمل؟».

ابتسم الأستاذ كعادته، سكت طويلًا، ثم نظر ناحية الركن الشرقي من الغرفة حيث ذلك الصندوق القديم الكبير، وقال: «يا ولدي، حَل المشكلة يبدأ من هذا الكتاب، خذه واقرأه جيدًا»..

لم أتوقع تلك الإجابة.. ولكني هممت على الفور إلى الصندوق الخشبي القديم الكبير

لأفتحه وأحضر الكتاب من داخله، حاولت جاهدًا أن أفتحه ولكني فشلت، كان بابه ثقيلًا جدًّا، وكأنه صندوق كنز من كنوز القراصنة التي نقرأ عنها في الروايات ونراها في الأفلام، هو بالفعل كذلك، هو صندوق الكنز، فيه الكتاب الذي سينقذني الله به، لقد قال الأستاذ ذلك، فهو كذلك، الأستاذ يمازحني أحيانًا، ولكنه لا يسخر أبدًا من آلامي ولا يُسفِّه أحلامي..

رأيت أن بابه قد التصق بجسمه، يبدو أنه لم يُفتَح منذ سنوات، انتزعت سلسلة المفاتيح من جيبي وجعلت أمرر سن أصغر مفتاح منها بين حواف جسم الصندوق وبابه، كان هناك ما يشبه الصمغ، ولكني نجحت في إزالته، لا أعلم كم استغرقت تلك العملية، لا يهمني الوقت، المهم أن أفتح الصندوق وأستخرج منه الكتاب..

وجدت قطرات تسقط على أرض الغرفة الخشبية ومن البرودة على جبيني وظهري عرفت أنه العَرَق، يبدو أنني كنت متحمسًا جدًّا في تخليص باب الصندوق ويبدو أنني نجحت في ذلك، ألقيت سلسلة المفاتيح على طاولة زجاجية بجوار الصندوق، أو لعلي ألقيتها على شيء موضوع فوق الطاولة لأنني لم أسمع صوتًا نتيجة إلقاء المفاتيح على الزجاج..

ما هذه التفاصيل التي أهتم بها الآن؟!

مشكلة أهل الإدارة في شدة الاهتمام بالتفاصيل، وليس هذا وقت التفاصيل، بل وقت استخراج الكتاب، أستاذي ينظر لي ويبتسم، يبدو أنه راض عما رآه فيَّ من إصرار وعزيمة، أستاذي أمرني أن آخذ الكتاب وأقرأه، وأنا إن شاء الله سآخذه وأقرؤه حتى وإن كان في قاع بئر سحيقة، كفاني شرفًا أنه أمرني، فما بالي وأنا في أشد الحاجة لما أمرني به، أنا الغريق وذلك الكتاب هو طوق النجاة، الحمد لله، فتحت الصندوق، نظرت بداخله ولكني لم أرَ شيئًا، إضاءة الغرفة ضعيفة، أخرجت تليفوني المحمول ووجهت ضوءه إلى ما بداخل الصندوق، فهالني ما رأيت!

لا شيء.. فراغ.. لا يوجد أي شيء بداخل الصندوق! أيسخر مني أستاذي؟ نظرت نحوه بذهول طفل، فظل مبتسمًا وقال: «ولماذا يا ولدي ظننت أنك ستجد الكتاب بداخل الصندوق؟ أنا لم أقل لك ذلك».. جعلت أنظر داخل الصندوق وكأنني لا أسمعه، فقال: «انظر يا ولدي خارج الصندوق».. نظرت حولي بشكل آلي تلبيةً لأمره فلم أجد أي شيء، فقط تلك الطاولة الزجاجية وسلسلة مفاتيحي عليها، ليست عليها تمامًا، ولكن على.. كتاب.. موضوع فوق الطاولة الزجاجية!

يا للعار!

تمنيت أن أختفي وأن تنشق الأرض المُبَلَّلة بعرقي وتبتلعني، وقفت أمامه مهلهلًا وفي حالة مزرية بعد معركتي مع الصندوق الذي فتحته عنوة قبل أن أعرف أنه كان قد لُصِق بالصمغ لغرض معين، وها أنا قد أتلفته، مددت يدي وأعطيته الكتاب، فأخذه مني بهدوء وقال: «اجلس يا ولدي».. خشيت ألا يقولها، فأنا فعلًا لا أستحق الجلوس بين يديه.

ولكن ربي كريم..

«الرجل أشار بنظره نحو كتاب على طاولة بجانب صندوق، لماذا تركت الكتاب والطاولة وذهبت إلى الصندوق؟».. كنت أكلم نفسي، لم أسأله، ولكنه أجاب، كثيرًا ما يفعل ذلك.. قال: «يا ولدي، هذه هي المشكلة، عندما تتعقد الأمور غالبًا ما نبحث عن الحلول بداخل الصندوق، ما دام هناك صندوق فإننا غالبًا ما نعتقد أنه يحـوي شيئًا ذا قيمـة، وهذه طبعًا ليست قاعدة، فكثيرًا ما يكون الحل واضحًا جليًّا سهلًا خارج الصندوق، وهذا هو الموضوع الذي يناقشه الكتاب الذي أطلب منك قراءته، هو يعرض فقط المبدأ الأول من مبادئ التفكير خارج الصندوق، أريدك أن تقرأه جيدًا، وبعدها سأعرض عليك بقية المبادئ، ولعلنا نناقشها بالتفصيل في الوقت المناسب..

يا ولدي، إن في التفكير خارج الصندوق، إن شاء الله، حلًّا لمشكلاتك وجوابًا عن جميع سؤالاتك»!

سألته وقد تجاوزت الحرج: «سيدي، وما هو التفكير خارج الصندوق؟ وإن كان هذا الكتاب يحتوي فقط على المبدأ الأول فأين بقية المبادئ؟ وما عددها؟»..

ابتسم أستاذي وقال بهدوء بعدما نظر إلى هيئتي المُزرية: «اذهب أولًا لتغسل وجهك، وسنتحدث بعد ذلك إن شاء الله في كل ما تريد»..

قمت متخاذلًا وفي عيني سؤال بديهي عن مكان الحمام، فقال وقد ارتسمت على وجهه المشرق، دائمًا، علامات الجدية: «ابحث عنه يا ولدي، ولكني أؤكد لك مبدئيًّا أنك لن تجده أبدًا بداخل الصندوق»!

فلسفة التفكير خارج الصندوق

«يمكنك تخيُّل أن الأفكار والخبرات والذكريات يتم تخزينها بواسطة عقل الإنسان في صناديق، أي إن هناك مثلًا صندوقًا للعمل، وآخر للبيت والأسرة، وثالثًا للمذاكرة وبعض أنواع المعرفة، ورابعًا لشعائر الدين، وخامسًا للقيم الغيبية.. وهكذا، فكلما تُعرَض على الإنسان معلومة أو خبرة كأنه يضعها بشكل تلقائي بداخل الصندوق الخاص بها في عقله..

هل سمعت عن الفزورة التي تقول: محمد سائق الأتوبيس توقف في المحطة الأولى وركب معه أربعة أشخاص، وفي المحطة الثانية نزل ثلاثة من الأتوبيس وركب عشرة، وفي المحطة الثالثة ركب خمسة عشر شخصًا ولم ينزل أحد، وفي المحطة الرابعة نزل تسعة ولم يركب أحد.. ثم يكون السؤال: ما هو اسم سائق الأتوبيس؟

تلك الفزورة تلعب على فكرة الصناديق، تذكر اسم السائق على عجل، وبعدها تأخذك إلى صندوق الحسابات، وتظل أنت بداخل ذلك الصندوق فترة لتحسب وتجمع وتطرح، ثم فجأة يكون السؤال من خارج الصندوق، فيحدث لك نوعٌ من الارتباك والتشتت حتى تصل لصندوق الأسماء في عقلك لتستخرج منه الإجابة، وأحيانًا تتيه ولا تجده!

هذا مثال رمزي وفي غاية البساطة والسطحية، ولكن أسئلة الحياة واختباراتها أكثر قسوةً وأشد تعقيدًا، فهناك من لم يفكر طوال حياته إلا من خلال ثلاثة صناديق، مثلًا، البيت والشغل والأصدقاء، فإذا ما مر عليه موقف صعب ولم يجد له حلًّا من داخل المنهج، أي لم يجد له حلًّا في مخزون خبراته التي خزنها طوال حياته بداخل تلك الصناديق الثلاثة، فإنه يعتقد الخطأ أنها نهاية الحياة وأن المشكلة لا حل لها، بينما قد تكون المشكلة بسيطة وحلها أبسط ولكنها من خارج صناديق حياته الثلاث..

مثلما حدث لك يا ولدي مع الكتاب والصندوق، وغالبًا مثل حالتك التي جئتني بها، فأنت غالبًا بحثت بداخل صناديقك فلم تجد فيها حلًّا لمشكلاتك ولا أجوبة على سؤالاتك، ففقدت الأمل!

وذلك ما قد يدفع بعض الضعفاء إلى الكسب من الحرام عند ضيق الحال بداخل الصناديق التي تعود على البحث فيها عن الرزق، أو قد يدفعهم حتى إلى التفكير إلى ما هو أقبح وأشد من ذلك؛ إلى الخيانة أو القتل أو حتى الانتحار، ذلك لأنهم ضيقوا واسعًا ولم يفكروا بشكل ابتكاري، بل ظنوا وقت الأزمات وتعقد المشكلات أن خيارات الحل محدودة في خبراتهم الموجودة بداخل الصندوق»!

كان هذا بعضًا مما قاله لي أستاذي قبل أن أنصرف حاملًا الكنزَ، طوق النجاة الذي بحثت عنه بداخل الصندوق فوجدته خارجه، الكتاب الأحمر، قررت أن ألغي جميع ارتباطاتي لذلك اليوم، كم هي كثيرة، لا يهم، المهم أن أجلس وأقرأ وأتعلم وأفكر وأنوي وأتحرك... يا رب.

عادة ما أقرأ على سريري قبل النوم، ساعة، ساعتين، ثلاثًا، حسب التساهيل، لكن مع مثل ذلك الكتاب القيم يتغير النظام، أخرج في الهواء الطلق، لا تهمني حرارة الجو أو

برودته، فإن لهذه الكتب نسيمًا في الصيف ودفئًا في الشتاء، كم أحب تلك اللحظة، كتاب قيم وهواء طلق وقلب شغوف، فتحت الكتاب ونظرت للصفحة البيضاء الأولى منه فوجدتها بيضاء فارغة من الكلمات مثل أغلب كتب هذه الأيام، ولكن هناك مع ذلك شيء غريب في هذا الكتاب، فقط غلاف أحمر داكن ولا يحمل أي عنوان، ولا حتى إشارة لدار نشر، أين رقم الإيداع؟ لعله قديم أو مصور من نسخة أصلية، أكيد هو كذلك، فالنسخ الأصلية من مثل هذا الكتاب لا يجوز أبدًا التفريط فيها، هذا غالبًا ما فعله أستاذي، صوره لي خصيصًا بينما احتفظ عنده بالنسخة الأصلية. كم أُقدّرُك يا أستاذي!

«بسم الله» هكذا قلت، وهكذا دائمًا أقول، فأنا لا أبدأ القراءة ولا الأكل إلا بعد أن أسمي الله، فكلاهما غذاء، هذا للروح وذاك للجسم ولا أتحمل أن يشاركني فيهما الشيطان، وأيضًا الصفحة الثانية بيضاء، فارغة.. غريب هذا الأمر.. وكذلك الصفحة الثالثة بيضاء، والرابعة والخامسة والعاشرة و... ما هذا؟

الكتاب لا يوجد به أي شيء، ولا كلمة، الكتاب عبارة عن صفحات بيضاء فارغة «ما هذا الهراء؟ أنا لست في حاجة إلى ذلك، ما هذا الكلام الفارغ؟! صندوق فارغ ثم كتاب فارغ، أهذا ما يفعله معي الأستاذ؟ إن كان يسخر مني أو يمارس تلك الألعاب التي تليق بالصبية فهو ليس أستاذي ولا يشرفني الجلوس بين يديه، أيريد إبلاغي بطريقة غير مباشرة أنه يراني فارغًا، خاويًا، مثل صفحات هذا الكتاب؟ أعرف هذا، وأعيده على نفسي كل يوم، فلماذا الإهانة؟ ما كان عليه إلا القول بشكل مباشر إنني لا أصلح للجلوس بين يديه، كنت سأُقبّل يده كعادتي وأنصرف بأدب، أهكذا يتصرف القدوة؟ شكرًا يا سيدي»!

أمضيت واحدة من أسوأ ليالي حياتي.

مضى أسبوع أو أكثر على موقعة الكتاب الأحمر الفارغ، ولكني لم أنس ألمي وصدمتي، وإن كنت وجدت في الانشغال وكثرة الأسفار شيئًا من السلوى.

وفي ذات صباح استدعاني..

لأول مرة في حياتي أشعر أنني لا أريد رؤيته، طلب مني أن أحضر معي الكتاب ليناقشه معي.. ماذا يناقش؟! أيفعل هذا إمعانًا في إذلالي، أم أنه لا يعلم ما بداخل الكتاب؟ لا يمكن.. ليس أستاذي الذي يفعل ذلك، فهو لن يشير عليَّ بقراءة كتاب لم يقرأه جيدًا، بل غالبًا ما يكون هو الذي كتبه بنفسه، هناك خطأ ما، أستاذي مخلوق يخطئ ويصيب، الحكمة تقتضي أن أذهب إليه لأعرف الحقيقة، مازلت أجد شيئًا منه في نفسي، ولكني ذهبت.

والحمد لله أنني ذهبت!

المبدأ الأول

جلست بين يديه وكأن شيئًا لم يكن، ما إن رأيته حتى وقع في قلبي حبه ومهابته، وكأنني أراه للمرة الأولى، لم أجد الصندوق الخشبي في مكانه بالركن الشرقي من الغرفة، فقال أستاذي: «لا تقلق نفسك يا ولدي بالصندوق، فقد ذهب لحاله، المهم الآن أن أسمع رأيك بالتفصيل في محتوى الكتاب»!

لا أعرف لماذا اتهمت ذاكرتي بشكل غير مسبوق، أحسست أن في الكتاب فصولًا وأبوابًا وحِكَمًا عظيمة ولكني أنا الذي لم ألحظها، قلبت نظري بين عيني أستاذي العميقتين القديمتين الجادتين وبين غلاف الكتاب الأحمر، خشيت أن أفتح الكتاب فأجد الكلمات على صفحاته تتراقص وهي تُخرج لي ألسنتها، لم أفتح الكتاب، قدمته لأستاذي وأنا أقول بصوت خفيض: «لا شيء، ليس لديَّ رأي في محتوى الكتاب لأنه لا يحتوي على أي شيء، سيدي»..

لم يأخذ الأستاذ مني الكتاب، فقط أشار إليَّ بنظره وهو يبتسم ففهمت أنه يريدني أن أفتحه أمامه، فتحته وأنا خائفٌ من تراقص الكلمات وسخريتها مني.. ولكن الله سلَّم.. كان الكتاب خاويًا، قلَّبت الصفحات وأنا جالس بين يديه موجهًا رأس الكتاب ناحية الأرض حتى يرى بنفسه بياض صفحاته، ولكنه ظل مبتسمًا وعلى عينيه نفس النظرة ونفس الإشارة، ظللت أقلب الصفحات أمامه حتى وصلت، تقريبًا، لآخر الكتاب وقد أصابني الملل، فقال بنبرة آمرة: «أكمل يا ولدي، فما زالت هناك صفحات».. إذن هو يُمعن أكثر في إذلالي، لِيَكُن، قلبت الصفحة وراء الصفحة حتى لم يتبق إلا صفحتان أخيرتان.. ولكني لمحت على ظهر الصفحة قبل الأخيرة ظلًّا لكلمات مكتوبة على وجهها.. نظرت لأستاذي، فإذا به على نفس الابتسامة والنظرة والإشارة، أحسست بقبضة في قلبي، خوف، لماذا الخوف؟ لا أدري! قلبت الصفحة بحرص وكأنني أخشى أن تنفجر في وجهي، فوجدت هذه الجُملة:

المبدأ الأول للتفكير خارج الصندوق:

(ذاكر الواقع جيدًا قبل التَّمَرُّد عليه)

تذكرت الآن ما قاله لي أستاذي عندما أعطاني الكتاب، قال بالحرف الواحد: «وهذا هو الموضوع الذي يناقشه الكتاب الذي طلبت منك قراءته، هو يعرض فقط المبدأ الأول من مبادئ فلسفة التفكير خارج الصندوق، أريدك أن تقرأه جيدًا، وبعدها سأعرض عليك بقية المبادئ في الوقت المناسب»..

نعم هذا ما قاله لي، طلب مني قراءة الكتاب جيدًا، وهذا ما لم أفعله، قال إنه يعرض فقط المبدأ الأول من مبادئ التفكير خارج الصندوق، وهو بالفعل كذلك، هو لم يقُل إن الكتاب يناقش المبدأ الأول أو يحلله أو يشرحه، هو قال إنه فقط يعرض المبدأ الأول، وهذا تمامًا ما عليه الكتاب!

إلى متى سيصبر عليَّ أستاذي؟

ولكنه لم يصبر فقط، بل ساندني وشجعني، فقال: «لا تحزن يا ولدي، كلنا نقع في مثل ذلك الفخ، إلا من رحم ربي، ولكن المهم الآن هو التأمل في المعنى والاستفادة من المغزى».

(براغ) مدينة الجمال..

الكلب الأبيض الصغير يقفز ويلعب حول الكلب الأسود الضخم بينما أصحابهما يدخنون تحت ظل الشجرة الكبيرة في وسط الحديقة العامة. جميلة (براغ)!

تعتبر من أجمل مدن العالم من حيث الهندسة والمعمار، حاولت الاستفادة من وقتي، كالعادة، كنت قد وصلت إلى جمهورية التشيك من القاهرة لحضور اجتماع عمل ليوم واحد فقط، وبعد الاجتماع وجدت عندي ثلاث ساعات من الحُرية حتى موعد الذهاب للمطار حيث الطائرة التي ستأخذني إلى حبيبتي مصر، ثلاث ساعات في النهار بدون عمل، فرصة لا تعوض، جلست على مقعد خشبي في تلك الحديقة العامة الباهرة الجمال أحدث نفسي في هواء (براغ) الهادئ النقي، أمسكت بالكتاب مفتوحًا على صفحته قبل الأخيرة ونظرت إلى ما كَتبَ فيها طويلًا لأتأمل في المعنى وأستفيد من المغزى كما وصاني أستاذي.. المبدأ الأول للتفكير خارج الصندوق: (ذاكر الواقع جيدًا قبل التمرد عليه).. عجيب أمر هذا الكتاب، يمثل حالي تمامًا، أحيانًا أقلب صفحات حياتي وأفكاري فلا أجد شيئًا يصلح لحل مشكلتي فأظنني خاويًا بينما الخلل عندي ليس في قلة المعرفة بل في دقة البحث!

من المنطقي جدًّا أن يكون المبدأ الأول من مبادئ التفكير خارج الصندوق هو: (ذاكر الواقع جيدًا قبل التمرد عليه).. فقد يكون الحل فعلًا بداخل الصندوق ولكننا لم نحسن البحث فيه، إن التفكير خارج الصندوق إذن ليس غاية، بل هو إحدى الوسائل لحل المشكلات وإدارة الأزمات!

تذكرت قصة قديمة عن حفل أقيم في إحدى المدن الأوروبية لعرض جهاز حديث من شأنه في ذلك الوقت أن يحدث ثورة تكنولوجية، حضر الحفل كبار العلماء والأساتذة في ذلك المجال، وقف مدير المعهد الذي تبنى مشروع تطوير الجهاز ليتحدث عنه ويوضح مميزاته والخطوات التي بذلت حتى يكون جاهزًا للعرض، ذكر أسماء أشخاص ومؤسسات عديدة ساعدت وشاركت في هذا الإنجاز، ومع ذكر كل اسم كان يعلو صوت التصفيق والترحيب، ثم جاءت اللحظة التي ينتظرها الجميع، سمع الحضور صوت موسيقى كلاسيكية حماسية، بينما أظلمت القاعة إلا عند بقعة من الضوء الأبيض القوي المُسلَّط على خشبة المسرح التي يعتليها ذلك الجهاز الضخم، وبحركة استعراضية بدت وكأنها لا تليق بمركز وهيبة مدير المعهد العريق، ضغط الرجل على زر التشغيل، ولكن.. لم يحدث شيء.. ضغط مدير المعهد على الزر أكثر من مرة ولا حياة لمن ينادي، الجهاز لا يعمل، تحول لون وجه مدير المعهد الأبيض في الأساس إلى الأحمر الفاتح ثم الغامق ثم تحول مع مرور الثواني القليلة الثقيلة التالية إلى الأزرق المائل إلى السواد.. فضيحة بكل المقاييس.. بدأت همهمات في القاعة، قام بعض الحضور من العلماء والفنيين والتفوا حول الجهاز وبدأ كل منهم في وضع نظريته الخاصة لحل المشكلة، وفجأة سمع الجميع صوت ولد صغير وهو يصيح: «وجدت أصل المشكلة، وجدت أصل المشكلة».. سكنت القاعة تمامًا في لحظة واحدة، ونظر الجميع إلى الولد الذي كان يلوح بفيشة الكهرباء

الخاصة بالجهاز..

إذن المشكلة كانت في عدم وصول الكهرباء للجهاز!

توجه مدير المعهد مسرعًا ليأخذ الفيشة من الولد ويضعها بنفسه في كُبس الكهرباء، ثم عاد بخطوات بطيئة جنائزية ليقف بجانب الجهاز، وبينما لايزال الجميع ينظرون إليه بشغف وذهول ضغط الرجل على زر التشغيل فأضاءت أنواره، وبدأ الجهاز في العمل!

بعد العرض، وبعد أن ظهر للجميع الإمكانات الحقيقية لذلك الجهاز الاختراع، قال مدير المعهد، وقد عاد وجهه للونه الأصلي: «لقد ذكَّرنا هذا الولد الذكي بأحد المبادئ الراسخة للتفكير الابتكاري، وهو أن ندرس الواقع من حولنا بشكل دقيق قبل الشروع في إعادة اختراع العجلة، فلولا وجوده بيننا واكتشافه لأصل المشكلة، لكنا جميعًا الآن نعمل على تفكيك الجهاز وتحليله، بل ويمكن رفض فكرة الاختراع من الأساس. شكرًا (مارك)»!

تلك القصة القديمة تؤكد أن المبدأ الأول من التفكير خارج الصندوق كان معروفًا للجميع ومتداولًا منذ سنوات طويلة، وأنا الذي أدعي الاهتمام بالإدارة لم أتأمل في ذلك المعنى البديهي إلا الآن!

طفل يلعب على الشاطئ، هذه هي حقيقتي!

كم تمردت على واقعي قبل دراسته، أستغفر الله، وكم نصحت بالدواء قبل اكتشاف العلَّة وأصل الداء! ولكني تعلمت الدرس، من اليوم سأذاكر الواقع جيدًا قبل التمرد عليه، سأَدرس حال بلادي بالتفصيل، لن أترك حجرًا إلا وأقلبه لأبحث فيه وتحته عن أصل المشكلة، لا بد وأن يكون هناك سبب رئيس للمشكلات التي نعيش فيها، لعلي بحثت من قبل كما فتشت عن الكلمات في الكتاب، متوترًا متسرعًا فاقدًا التركيز، فتوصلت إلى نتائج عشوائية وغير مرتبة تليق بأسلوبي الساذج في الدراسة والبحث..

إذن تلك هي مهمتي القادمة، أشعر بالدماء تعود إلى رأسي، سأبحث وأبحث عن جذر المشكلة حتى أَصِل، ولن ألتفت عن هدفي حتى أصل، فقد علمني أستاذي أن المُلتَفِت لا يَصِل!

ولما شعرت أنني قد تأملت فعلًا في المعنى واستفدت صدقًا من المغزى، وضعت ذلك المبدأ الأول الغالي في مكان خاص بداخل قلبي وعقلي، وازددت شوقًا وتطلعًا لمعرفة المبادئ الأخرى، قال أستاذي إن في التفكير خارج الصندوق حلًّا لمشكلاتي وإجابة عن جميع سؤالاتي.. يا رب عَلمني وافتح لي خزائن رحمتك.. نظرت في ساعتي فوجدت الساعات الثلاث قد انقضت وكأنها دقائق، أغلقت الكتاب الأحمر العجيب ووضعته في حقيبتي الصغيرة التي أحملها دائمًا على ظهري في الأسفار، وتوجهت إلى المطار مغادرًا (براغ). وعائدًا إلى حبيبتي.

المُربَّعات الأَربعة

أمسكت ورقة في يدي وجعلت أبحث عن مكان على جدران الغرفة، لا يوجد سنتيمتر واحد شاغر لأُعلِّق عليه تلك الورقة، خلال الأيام والليالي السابقة كنت أفكر وأرسم الخرائط الذهنية لما أفكر فيه وأدون ملاحظاتي وأعلقها على حوائط غرفة مكتبي، أنزلت جميع اللوحات والشهادات والصور التذكارية وعلقت مكانها أفكاري لتكون أمامي أنظر إليها وأتحدث معها لعلها تجيب، أصبحت الغرفة مُخيفة!

اكتشفت أن البحث عن أصل مشكلة بلدي أعقد مما تصورت، خارت قواي ولكن عزمي لم يفتر، كنت كمن سحبه البحر بعيدًا عن الشاطئ فقرر عدم المقاومة، أنا الآن في الدوامة، أدور فيها مشدوهًا مشدودًا نحو القاع، لن أقاوم، قررت الاستسلام لدوامة البيانات والمعلومات والأفكار والتحليلات حتى أصل للمشكلة الأم، أو أهلك دونها!

بدأت الحضارة من الجنوب، لا يمكن أن يكون هذا هو حال مهد الحضارة الإنسانية، لا يمكن أن نصبر على حال الصعيد هكذا، قلت لنفسي: «نعم من هنا سأبدأ، من الصعيد».. وبدأت.. وبعد ساعات وساعات من التخطيط وتكوين نماذج العمل الأساسية رأيت سيناء ترمقني بنظرة عتاب من خريطة مصر التي رسمتها بيدي وعلقتها على الحائط.. سيناء.. البقعة الغالية، المقدسة، كلَّم الله فيها موسى تكليمًا، كيف لا يكون هذا الموضع بالذات من أغنى بقاع العالم؛ نصف أهل الأرض على الأقل يؤمنون إيمانًا راسخًا بأن الله تعالى كلم موسى عليه السلام في هذا المكان، وأين نحن من هذا المكان؟ مأساة في التعليم والصحة والبنية التحتية والمشروعات الاستثمارية، كيف نتجاهل هذا الكنز؟ سأبدأ من سيناء، بسم الله.. ولكن ماذا عن الصعيد، هل سأتركه الآن؟ أبدأ بسيناء أم بالصعيد؟

وماذا عن الدلتا التي تتآكل؟ وماذا عن مباني الإسكندرية التي تنهار كبيوت من الرمل؟ والقاهرة التي تُقهر كل يوم ألف مرة من العشوائية والتخبط والزحام وتردي أوضاع الصفوة فيها قبل العوام؟ وماذا عن حدودنا الغربية؟ هل نسيتها أم تناسيتها؟ ومدن القناة، والنوبة، وسيوة والواحات التي تتألم جميعها بكبرياء، فلا نكاد نسمع أنّاتهم مع كل صرخات الألم والغضب التي تخرج من جميع أركان المحروسة؟ المدن والقرى والشوارع والضواحي والترع والمساجد والكنائس والمباني والمصالح والوزارات والمدارس والمستشفيات كلها تصرخ، والبشر معهم يصرخون.. نعم البشر.. المصريون.. الأولى أن أبدأ بهم، بالمواصلات أم بالصحة أم بالتعليم؟ بأيها أبدأ؟

أنا تعبت.

نمت على أرضية غرفة مكتبي بدون وسادة ولا غطاء، انهرت فجأة، ولكني فتحت عينيَّ بعد دقائق، أو ساعات، وقد تذكرت قصة (مارك) والجهاز وفيشة الكهرباء، قلت لنفسي: «لعلي كنت أفكر من منتصف الطريق، هذه هي المشكلة، لا بد أن أعيد التفكير بطريقة أخرى».

علمني أستاذي منذ سنوات أن تقييم أداء أي دولة يجب أن يبدأ من خلال النظر إلى

أربعة مربعات، وأذكر أنه رسمها لي بخط يده، وأنا متأكد أنني احتفظت بهذه الرسمة في مكان ما، فأنا لم أترك كلمة واحدة كتبها لي أستاذي إلا واستأذنته في الاحتفاظ بها، ولكن المشكلة أنه على مر السنوات أصبح عندي مئات الصفحات والقُصَاصَات، وحتى قطع المناديل الورقية التي كان يرسم عليها أستاذي ويكتب أفكاره وأنا جالس بين يديه، فهذه إحدى عاداته عندما يفكر ويُعلِّم.

بحثت كثيرًا في الدُّرج الذي خصصته لمقتنياتي من أوراق وقصاصات أستاذي.. النفس، القلب، الهدف، الرؤية، المُهمة، التسويق الدولي، الإدارة في الفوضى، التخطيط الاستراتيجي، إدارة الوقت، سياسات الاندماج والاستحواذ، إدارة التغيير، ترتيب الأولويات، فلسفة الإدارة الرياضية، الإدارة وعلم الفيزياء.. مئات الأوراق التي أجدني مضطرًّا للتوقف أمام كل واحدة منها كثيرًا للتأمل والتدبر، ولكني بهذا أشتت نفسي، يجب ألا ألتفت عن هدفي، الملتفت لا يصل... وأخيرًا وجدتها!

تذكرت كل كلمة قالها لي أستاذي يوم أن رسم هذا الشكل على ورقة صغيرة، كان يشرح لي كيفية النظر لأداء أي دولة وكأنني أنظر إليها من على متن طائرة مروحية، أو كما قال بالإنجليزية:

From a helicopter view

كنت قد تلقيت طلبًا لتقديم المشورة لحكومة إحدى الدول التي تسعى لمراجعة منظومتها الإدارية بشكل شامل، أحسست بصعوبة المُهمة فكونت فريقًا من محترفي الإدارة للعمل معي على تلك المهمة الشاقة، ولم يتبقَّ لي وقتها إلا استشارة أستاذي، انتظرته كالعادة حتى استدعاني، فلما عرضت عليه الأمر قال: «فلتبدأ يا ولدي من هُنا».. ورسم لي هذا الشكل:

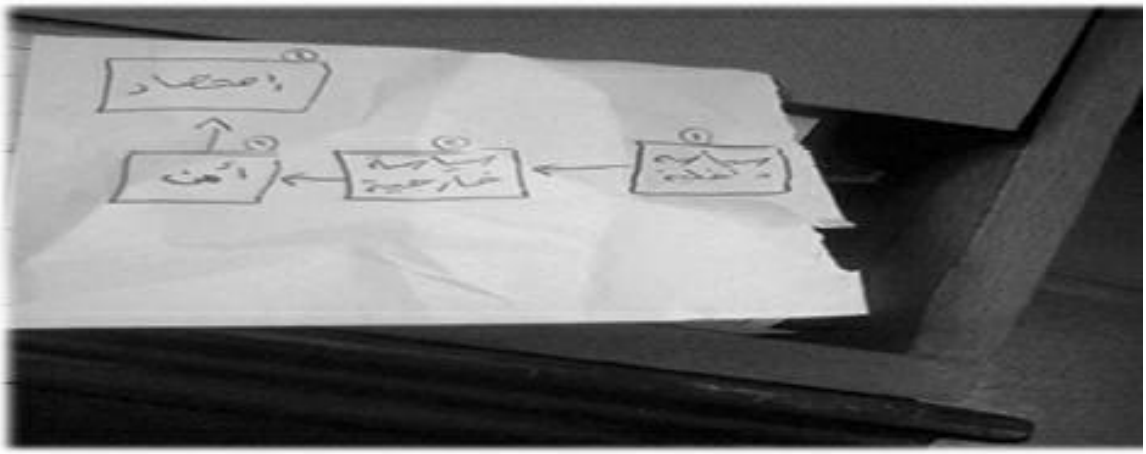

رسم أستاذي المربعات الثلاثة الأولى على نفس المستوى: (السياسة الداخلية) و(السياسة الخارجية) و(الأمن)، ثم وضع المربع الرابع (الاقتصاد) في الأعلى، لأن الاقتصاد، كما علَّمنِي، هو ثمرة المربعات الثلاثة الأولى.

فهمت منه وقتها أن الاقتصاد هو المقياس الموضوعي لأداء الدول ورفاهة الشعوب، ولكن لن يكون هناك اقتصاد قوي إلا إذا كانت الدولة آمنة، وهذا الأمان يعتمد بشكل

أساسي على السياسات الخارجية والداخلية للدولة.. ولذلك قال أستاذي: «من يرد تقييم أداء دولة ما أو التخطيط لها، فعليه أن يبدأ أولًا بالمُربعات الأربعة»!

والآن، إذا كنت سأعمل بالمبدأ الأول للتفكير خارج الصندوق وأذاكر الواقع جيدًا قبل التمرد عليه، وإذا كنت سأبحث جيدًا داخل الصندوق قبل الشروع في التفكير من خارجه، فإنه يتعين عليَّ أن أبدأ من نقطة البداية.. المربعات الأربعة.. ويجب عليَّ العمل عليها بالترتيب، فلا يصح أن أبدأ بالعمل على المشكلات الاقتصادية بينما الأمن أساس الاقتصاد، ولن أعمل على التفكير في منظومة الأمن الداخلي أو الخارجي إلا بعد نظم الإدارة السياسية التي تؤثر بشكل قوي ومباشر في أمن البلاد، وبنفس المنطق فإنني لن أبدأ من السياسة الخارجية بينما أول الطريق يبدأ من موضع قدمي، من السياسة الداخلية!

النظم الإدارية للدولة والسياسات المترتبة عليها لم تتغير كثيرًا منذ ثورة 1952، بل إن هناك بعض التفصيلات التي لم تتطور منذ أنشأ محمد علي دولة مصر الحديثة، وقتها كانت حديثة، ولكن الآن أغلب تلك النظم والقوانين والهياكل الإدارية منتهية الصلاحية، ونحن فقط نسير بنفس الطريقة التي لا نعرف لها فائدة إلا أننا نخاف من تغييرها، أو لعلنا لم نفكر أصلًا في ذلك!

هناك أسئلة كثيرة تتعلق بتفاصيل دقيقة ولكن أثرها كبير على كفاءة إدارتنا السياسية، ولعل أغلب هذه الأسئلة لم يخطر لبعضنا على بال.. مثل: لماذا لا يزال نواب الشعب يصفقون في مجلسهم؟ ولماذا لا توجد طريقة حديثة للتصويت على مشروعات القوانين؟ وأين هي التحليلات التي تخرج من المجلس بعد التصويت؟ وهل مجلس النواب أو مجلس الشعب هو أفضل وسيلة لتمثيل الشعب؟ ولماذا يصيح أغلب نواب الشعب وهم يتكلمون؟ ولماذا يصيح أغلب خطباء المساجد وهم يخطبون؟ وإذا كانت الثقافة هي طرائق حياة الشعوب، فلماذا كانت اهتمامات وزارات الثقافة على مر تاريخنا الحديث أبعد ما تكون عن طريقتنا الحقيقية في الحياة؟ ما هي قصة السنة السادسة الابتدائية؟ ولماذا كلما فكَّرت حكومة في تطوير التعليم ألغت أو أعادت تلك السنة بالذات؟ أين السر؟ وهل في مصر فعلًا مجانية تعليم؟ ما هو المعنى الحقيقي لوزارة الإعلام؟ ولماذا لا يوجد عندنا جهاز رسمي معلن للدعاية رغم أننا نعاني من ضعف عام في تسويق الأفكار التي توحد الشعب الذي يفرقه الجهل وتقسمه الشائعات؟ ولماذا لا يوجد للأزهر الشريف فرع في كل حي ومنطقة في مصر، شأنه شأن أقسام الشرطة؟ ولماذا لا يوجد تواصل مباشر ودائم وسهل بين المواطن المصري البسيط وبين دار الإفتاء؟ ولماذا لا يوجد عندنا جهاز مستقل لإدارة عمليات التغيير؟ وما الأساس العلمي الذي قُسِّمَت مصر إداريًّا بناءً عليه لهذا العدد الحالي من المحافظات؟ من تصدى لهذا التقسيم وحلله وناقشه؟ ولماذا لم نفكر بجدية في مراجعة شاملة للنظام الانتخابي الحالي الذي لن يصمد أمام كل هذه الـ ... .

ما هذا؟!

نعم.. هذه هي أصل المشكلة، كيف فاتني هذا الأمر؟!

يااااه... كانت دائمًا المشكلة الأساسية أمامي ولم أفكر أبدًا في العمل عليها! فعلًا كان

يجب عليَّ أن أبدأ بالتفكير من الأساسيات، فعلت تمامًا مثل الذين توجهوا لفحص الجهاز ونسوا أن يتأكدوا من وصول الكهرباء إليه، هذا الأمر تمامًا مثل الكهرباء لإدارة أي دولة ديمقراطية.

الآن أستطيع أن أقول مثلما قال الطفل (مارك): «وجدت أصل المشكلة»!

أَصلُ المُشكِلة

بدأ القطار في التحرك، ترك الشاب كل ما في يده وأسرع متخطيًا الواقفين والسائرين في المحطة، خاف ألا يستطيع اللحاق بالقطار فبدأ في الجري، وقع من جيبه بعض المتعلقات فلم يبال، مد يده اليسرى ليمسك بمقبض باب العربة الأخيرة للقطار، لامست أصابعه حافة المَقبض الذي لم يستطع الإمساك به، خرجت طاقة غير عادية من داخله فجرى خطوتين لعلهما الأسرع في حياته، وإذا بيده تمسك بمقبض العربة الأخيرة من القطار الذي بدأ يزيد من سرعته بشكل لا يقوى على مجاراته، طار الشاب بجسمه متحاملًا على قبضته، ولم يشعر بالأمان إلا بعدما استقرت قدمه اليمنى على أول درجة في سلم عربة القطار.

الشاب الآن في القطار، جلس على أول كرسي وجده في العربة، وقد بدأ يلتقط أنفاسه، بينما يشاهد من خلف زجاج النافذة المباني والمزارع والبشر التي تمر جميعًا أمامه سريعًا على خلفية صوت صافرة القطار الذي يُعلِن في حزم أن الرحلة قد بدأت بالفعل.

شعر الشاب بلمسة على كتفه، فنظر للرجل الواقف بجواره، فإذا به كمساري القطار الذي سأله بلا مبالاة: «تذكرتك».. فوضع يده في جيبه، ثم تذكر أنه كان متعجلًا ولم يحجز تذكرة، شعر بالحرج وأخرج فورًا نقودًا من جيبه وسأله: «بكام التذكرة؟».. فرد عليه الكمساري بسؤال: «إنت نازل فين؟».. كان وقع هذا السؤال عليه كالصاعقة.. قال بذهول: «مش عارف»! قال الكمساري وقد نفد صبره: «أستغفر الله العظيم يا رب، يا عم خلصنا، القطر بيوقف في أربع محطات، إنت نازل فين؟».. دفع الشاب ثمن تذكرة آخر الخط ليخرج من ذلك الموقف الغريب، ثم جلس شاردًا يحدث نفسه: «لقد رأيت القطار يتحرك، فخفت أن يفوتني، تركت كل ما في يدي وفعلت أقصى مجهود لأركبه، ولكنني لم أكن أفكر أساسًا في الذهاب إلى مكان بعينه، أنا أصلًا لم أكن أنوي السفر».. نظر إلى النافذة وبدأ يسأل نفسه: «لماذا ركبت القطار؟».

قصة الشاب والقطار هي قصة رمزية، ولكنها تحدث لأغلبنا مع اختلاف التفاصيل، إلا من رحم ربي، نسير في رحلة الحياة قبل أن نحدد أهدافنا فيها فيكون أغلبنا على مثل حال ذلك الشاب، نركب أي قطار يتحرك خوفًا من فواته بدون أن نعلم يقينًا إلى أين سيأخذنا، ندرس ونعمل ونتزوج ونثور ونهاجر ونخاصم ونصالح، ولكننا ننسى غالبًا أن نسأل أنفسنا ذلك السؤال العبقري: (لماذا؟).

لماذا ندرس؟ ولماذا نعمل؟ ولماذا نتزوج؟ ولماذا نثور؟ ولماذا نهاجر؟ ولماذا نخاصم؟ ولماذا نصالح؟ كيف ننطلق فى مشوار الحياة قبل تحديد الهدف الأكبر أو (الرؤية) كما يسميه أهل الإدارة؟

وبما أنني منشغل الآن في البحث عن أصل مشكلة بلدي، فعليَّ أولًا تحديد الرؤية، وأعتقد أن الهدف الأكبر لبلدي كان دائمًا وسيظل هو أن ينعم أهله بالعدل والرخاء.

هناك من قد يقول: وكيف تنسى الحُرية؟ إن الوصول للحرية هو أيضًا هدف أكبر، فإذا

سألناه: «إلى أي مدى؟ هل نكون أحرارًا للدرجة التي نقتُل عندها الناس فى الطرقات متى أردنا ذلك؟» فيقول: «لا، مش للدرجة دي». فنقول: «إذن الحرية هنا هي هدف جميل وجليل ومن الواجب السعي الجاد إليه، ولكنها مع ذلك ليست الهدف الأكبر، ذلك أن لها قيودًا وحدودًا، في حين أن من خصائص الهدف الأكبر ألا يكون محدودًا أو مقيدًا وإلا فستتوقف الدول والمؤسسات والأفراد يومًا ما عن المسير نحو أهدافها خوفًا من كسر القيود أو تخطي الحدود، وهنا ينتهي الدافع للحركة في الحياة ويكون الموت!».

وأما عن العدل والرخاء فلا حدود ولا نهاية لهما، العدل مطلوب حتى مع القاتل السفاح، والرخاء مطلوب حتى مع الطائر الذى يسعى لرزقه فوق الأرض التى ولانا اللهُ تعالى عليها، ولذلك فإن (العدل) و(الرخاء) هما- في رأيي- الهدف الأكبر للبلاد.

وبناءً عليه، فنحن قد اخترنا في رحلة السعي نحو العدل والرخاء أن نركب قطار الديمقراطية، بينما هناك من اختار وسائل أخرى غير الديمقراطية، نعم، فهناك وسائل أخرى غير ديمقراطية وهي مع ذلك محترمة وجادة وجيدة للوصول إلى العدل والرخاء، ولكننا مع ذلك اخترنا الديمقراطية لأننا رأينا أنها في الوقت الحالي هي الأنسب لنا فى مصر.

ولأن الديمقراطية هي أن يحكم الشعبُ نفسه بنفسه ولنفسه، إما بشكل مباشر كما يحدث في سويسرا، وإما بشكل غير مباشر كما يحدث في أغلب الدول الديمقراطية التي يقوم فيها الشعب بتفويض أشخاص وأحزاب يمثلونه لفترة معينة، فإذا صدقوا ما عاهدوه عليه، جدد لهم، وإن لم يصدقوا لضعف في القدرة أو تغيُّر فى الرغبة، بدلهم واختار غيرهم.. وبهذا لا تكون الديمقراطية هي القدرة على الاختيار السليم، ولكنها القدرة على التغيير!

والتغيير في الديمقراطية يكون بالصندوق..

فماذا لو فقد جزء من الشعب الثقة في كفاءة وسلامة ونزاهة الصندوق؟ هنا سيبحث ذلك الجزء من الشعب عن وسائل أخرى للتغيير مثل العنف أو الثورة أو الهجرة، وما أكثر الوسائل والبدائل! وليس سرًّا أن هناك الملايين من شعب مصر على استعداد دائم للشك والطعن في سلامة ونزاهة العمليات الانتخابية التي تُجرى في بلدهم!

المعضلة هنا هي أننا لو لم نثق تمامًا في سلامة الانتخابات العامة فلن نجد أبدًا بذلك الاستقرار والتماسك الداخلي، ونتيجة لعدم استقرارنا وضعف تماسكنا الداخلي قد تتدخل دول ومجموعات خارجية في شئوننا بغض النظر عن سلامة نواياهم أو خبثها، وطبعًا الشعب لن يرضى عن ذلك، فتحدث اضطرابات في علاقاتنا بالمجتمع الدولي تنعكس سلبًا على سياساتنا الخارجية، ومع عدم الاستقرار الداخلي واضطراب العلاقات الخارجية لن ننعم أبدًا بالأمن، وهذا ما سيضعف بالضرورة اقتصاد البلد، وعندئذٍ نكون أبعد ما نكون عن هدفنا الأخير: العدل والرخاء!

وبناءً عليه، فإننا إذا وجدنا مؤشرًا لضعف ثقة جزء كبير من الشعب في سلامة ونزاهة الانتخابات والاستفتاءات، فعلينا التحرُّك فورًا لاستعادة هذه الثقة بكافة الوسائل والطرق، وإلا كان كالشرخ في جدار السد الذي سينهار حتمًا من شدة الضغط عليه.

إذن أصـل المـشـكـلـة:

أننا اخترنا طريق الديمقراطية بينما جزء كبير من الشعب المصري لا يثق في كفاءة وفاعلية النظام الانتخابي في البلد، ومهما كانت النتيجة التي ستخرج من صناديق الانتخابات والاستفتاءات العامة فإنها ستجد على الأقل مئات الآلاف الذين يخرجون في الشوارع بعد كل انتخابات بدعوى الشك في نزاهة نتائجها، وبذلك لن يستقر البلد أبداً، بل إنه سيبتعد كل يوم عن هدفه الأكبر!

وحـل المشـكـلـة: هو إنشاء نظام انتخابي مصري غير قابل للاختراق أو التزوير.

المبدأ الثاني

جلست بين يديه في أدب وقلت: «سيدي، لقد استفدت حقًّا من المبدأ الأول للتفكير خارج الصندوق، ذاكرت الواقع جيدًا قبل التمرد عليه، وأعتقد أنني بذلك قد وضعت يدي على أصل المشكلة، ولولا فضل الله عليَّ أن أجلسني بين يديك لما توصلت أبدًا لتلك المشكلة البديهية التي من فرط بداهتها ووضوحها نسيتها كما نسيها أغلب الناس، حقًّا، على هذا الأمر أن يكون أحد المشروعات القومية لبلدي في الفترة المقبلة، فهي لن تسير فعلًا في طريقها كدولة ديمقراطية إلا بوجود نظام انتخابي غير قابل للاختراق أو التزوير ويكون في نفس الوقت مناسبًا لظروفها ولثقافة شعبها!

ابتسم أستاذي بوقار وقال كلمات قليلة، كعادته، فهمت منها أنني على الطريق الصحيح. الحمد لله!

قلت: «سيدي، إنني أعلم سابقًا أنهم قليلون في بلدي الذين سيظهرون تحمسًا فعليًّا لذلك المشروع، لقد كانت دائمًا مشكلة ضعف النظام الانتخابي أمام أعين الجميع فلم يعرها أحد الاهتمام اللائق بها، فلماذا يهتمون الآن؟ قد يقول أحدهم: ولماذا لا نطور من وسائل الرقابة ونعمل على إصلاح النظام الحالي بدلًا من إنشاء نظام آخر؟ ولماذا لا نعتمد على الرقابة الدولية في كل انتخابات هامة أو لها ظروف استثنائية؟

وحتى إذا تحلى أحدهم بالمرونة واستوعب الفكرة وأثرها الإيجابي على أجيال وأجيال من الشعب المصري فلن يجرؤ منهم أحد، ولن يستطيع، اعتماد الميزانية التي سأطلبها فقط للقيام بالدراسة التفصيلية، فما بالك سيدي بمئات الملايين التي ستنفق بعد ذلك على تنفيذ المشروع نفسه؟! لن يجرؤ أحد على اعتماد تلك الميزانية لمشروع لا يجده أغلب الناس مُهمًّا في الأساس، وأنا إن أنفقت كل ما لديَّ فلن أغطي نصف مصروفات الدراسة التفصيلية للمشروع، كل ما أستطيع فعله الآن هو وضع الخطوط العريضة للفكرة وعرضها على الشعب، فإذا وجدت القبول والترحاب - وهذا ما أتوقعه - فسأبدأ في مخاطبة متخذي القرار، فإذا لم يتحمسوا- وهذا ما أتوقعه - ماتت الفكرة.

وهنا تكمن المشكلة، أنا لا أستطيع التفكير بعمق في شيء لن يُنَفَّذ!

وبالإضافة إلى ذلك، أعتقد أيضًا يا سيدي أن سمعتي المهنية ستكون على المحك؛ ذلك لأن هناك أطرافًا قوية وفاعلة ليس لها مصلحة في وجود نظام انتخابي قوي في مصر، وأن هؤلاء لن يدخروا جهدًا للقضاء على سمعتي حتى يتبين فشل المشروع الذي إذا توقفت عن التفكير فيه ولم أسعَ لتنفيذه فمن الممكن جدًّا أن يظل بلدي لعقود طويلة يعتمد على النظام الانتخابي الحالي والذي يسهل اختراقه من بعض الصبية الموهوبين، فما بالنا بمحترفي التزوير؟!

إذن مشروع هام فعلًا وضروري ولكن معه عقبة مادية، وعقبة في قبول الفكرة، وعقبة متعلقة بأمني الشخصي وسمعتي المهنية.. قل لي يا أستاذي بالله عليك، مع كل تلك العقبات التي ستواجه تنفيذ المشروع، هل من الحكمة أن أفكر فيه؟».

فقال أستاذي بلا مُقدمات: «يا ولدي، إن المبدأ الثاني للتفكير خارج الصندوق يقول: (افصل التفكير عن التنفيذ)»!

التفكير والتنفيذ

وقف في وسط القاعة وبدا كأنه ينتظر الإلهام قبل أن يتكلم، نظر لطلبة القسم الذي يرأسه في المعهد الأهم عالميًّا في مجال التأليف الموسيقي، ثم قال الدكتور مايكل م. ويلسن:

«إن الفرق بين التأليف الموسيقي وتلحين الأغاني هو أنكم في التلحين تجتهدون لإظهار معاني الكلمات والأحرف والمدود، كما تتقيدون بالمقدرة الصوتية لمن سيغني ألحانكم، ولكن التأليف الموسيقي يحرركم من تلك القيود، كلمة السر هنا في الخيال اللامحدود، لا تؤلفوا الموسيقى وأنتم تعزفونها على آلاتكم الموسيقية، إن في ذلك تقييدًا وتحديدًا لقدراتكم على الإبداع والخيال، ألفوا الموسيقى في أذهانكم أولًا، اكتبوها كما تتخيلونها، ثم بعد ذلك فكروا في عزفها، فماذا لو كانت قدراتكم على العزف أضعف من قدراتكم على التأليف؟ عندها سيتوقف إبداعكم عند حدود قدراتكم على العزف.. تذكروا أن من اخترع السيارة ليس أفضل قائد لها.. أنتم تبدعون، تتخيلون، تبتكرون، تفتحون الآفاق لغيركم ممن يعزفون موسيقاكم قبل من يسمعونها، احلموا وابتكروا وتخيلوا موسيقاكم في أذهانكم وكأنها لن تُعزف أبدًا، لا تشغلوا بالكم بقدرة العازفين الآن، هذا أمر له وقته، ولكن عند الإبداع... افصلوا التفكير عن التنفيذ»!

كان هذا مقطعًا واحدًا من عشرات المقاطع التي شاهدتها على اللابتوب وأنا في سيارتي، مرت الساعات ولم أشعر بها، أعطاني أستاذي كارت الذاكرة الذي سجل لي عليه مقاطع كثيرة من أفلام وحوارات ونقاشات ومناظرات عالمية تناقش فكرة فصل التفكير عن التنفيذ أثناء عملية الإبداع، لم أستطع الانتظار، خرجت من عند أستاذي وأنا أنظر لكارت الذاكرة الذي أعطاني إياه وقد وصاني أن أشاهدهم جميعًا في جلسة واحدة للتعمق أكثر في المبدأ الثاني للتفكير خارج الصندوق.. افصل التفكير عن التنفيذ.. كنت خائفًا من أن يكون كارت الذاكرة فارغًا مثل الكتاب الأحمر أو به أي مفاجأة، فما إن دخلت السيارة حتى وضعته في اللابتوب وبدأت في مشاهدة المقطع بعد المقطع وقد أخذني ذلك المبدأ الثاني تمامًا واستحوذ عليَّ، فلم أغادر مكاني وظللت جالسًا لساعات في سيارتي أمام بيت أستاذي أشاهد المقاطع وأدون الملاحظات!

هناك نظرية تُسمى (الأبواب الثلاثة)، وهي نظرية تناقش مشكلة التشتت الذهني الذي يؤدي لعدم الدقة وغياب الإتقان في أي شيء يقوم الإنسان عليه، وهذه مشكلة عامة بين أهل بلدي، وتقوم فكرة نظرية الأبواب الثلاثة على أن الإنسان وكأنه يقف في أي وقت من أوقات حياته بين أبواب ثلاثة، فإذا فتح واحدًا من تلك الأبواب الثلاثة ودخل منه لوقت طويل، فإنه يفقد صلته بالحاضر ويضعف تركيزه ويغيب عنه الإتقان في الفكر والقول والعمل..

وملخص هذه النظرية، كما فهمتها من أستاذي، أن الباب الأول من تلك الأبواب الثلاثة هو باب المستقبل، وكأنه باب موجود أمام الإنسان دائمًا وفي كل وقت، المفترض أن يفتحه الإنسان لوقت قليل يطل منه على المستقبل ليخطط لما هو قادم ثم يغلقه فورًا ويعود

للواقع حيث ينفذ ما كان يخطط له، ولكن للأسف هناك من يفتح باب المستقبل فيطل منه على الغد ثم يدخل فيه ولا يعود للحاضر، يفكر فقط في المستقبل ويعيش فيه ولا يعود للحاضر إلا قليلًا، تجده يخاف على مستقبله ومستقبل أولاده ومستقبل بلده ومستقبل الجيران ومستقبل الأقارب والخِلَّان، خايف على كل شيء وخايف من كل شيء، خايف على كل الناس وخايف من كل الناس، «خايفة من بكره واللي هيجرى» كما تقول الأغنية القديمة، ماذا سيفعل غدًا؟ وماذا سيأكل بعد ساعة؟ وماذا سترتدي في كتب كتاب بنت خالتها الشهر القادم؟ وما نوع المولود القادم؟ وهل سيكون لهما أبناء من الأساس؟ ولو كان هناك أبناء، يا ترى بكره مخبيلهم إيه؟ ويا ترى شكلهم هيكون إيه؟ ومئات الأسئلة ومئات الإجابات، ولن تنتهي أسئلتهم ولن يرضوا أبدًا عن الإجابات!

فكم من أناس فتحوا باب المستقبل ودخلوا فيه ولم يعودوا، لا يعيشون في الحاضر أبدًا، يقف أحدهم للصلاة فيجد أن ذهنه لا يستوعب أي شيء مما يقول، فهو يقف على سجادة الصلاة بجسده فقط، بينما عقله وقلبه ووجدانه قد فتحت باب المستقبل ودخلت فيه ولم تعد أبدًا، فلا يشعر أبدًا بلذة الحاضر، ولا يستمتع بالأحباب ولا بحلاوة اللقمة ولا بلطف نسيم الصباح، ولن يستطيع من كان هذا حاله التركيز فيما يفعله أو يقرؤه أو يراه أو يسمعه في اللحظة الحاضرة، فيفتقد في حياته ميزة الدقة وثمرة التركيز وفضيلة الإتقان!

وأما الباب الثاني في نظرية الأبواب الثلاثة فهو باب الماضي، وهو دائمًا خلف الإنسان وفي كل وقت، المفترض أن يفتحه الإنسان لوقت قليل ليتعلم من خبرات الماضي وتجاربه، أو ليستعيد شيئًا من الذكريات بحلوها ومرها، ثم يغلق هذا الباب ليعيش في الواقع وقد استفاد من تلك الإطلالة القصيرة على الماضي، ولكن للأسف كم من الناس فتح باب الماضي ليطل منه فنجده قد دخل فيه ولم يخرج، يتذكر كل كلمة قالتها فلانة وكل حركة فعلها فلان، يندم على أخطائه فيما فات ويتحسر على انقضاء ما كان له من نجاحات، يتيه في الذكريات الحلوة والمُرة على السواء، والنتيجة واحدة، الحياة في الماضي وضياع الحاضر، فيفقد بذلك ميزة الدقة وثمرة التركيز وفضيلة الإتقان!

والباب الثالث في نظرية الأبواب الثلاثة هو باب الحياة الموازية، لا هو مستقبل قادم ولا ماضٍ ولَّى وراح، وإنما هي حياة ليس لها علاقة بحياة الإنسان الواقعية، أفلام ومسلسلات وبرامج حوارية وبلاي استيشَن وفيسبوك وتويتر وصور ونكات للتسلية ونقاشات ليس لأغلبها علاقة بواقع الإنسان، ومن ذلك الباب يطل الإنسان كذلك على حياة الآخرين التي لا شأن له بها من قريب أو بعيد ولا علاقة لها بسير حياته، وذلك الباب يظهر دائمًا بجوار الإنسان، على يمينه أو شماله، والمفترض أن يفتح الإنسان الباب الموازي من وقت لآخر للتسلية والترفيه والخروج من المألوف والاطلاع العام بقدر الحاجة وفي إطار الحدود التي يضعها كل إنسان لنفسه، ثم يغلقه فورًا ليعود لحاضره حيث الواقع الفعلي والعمل الجاد في رحلة الحياة، ولكن للأسف هناك من تاه في غياهب الحياة الموازية، فلا يبحث عن عقله وقلبه إلا ويجدهما قد خرجا من الباب الموازي ولم يعودا، فتكون النتيجة المحتومة ضياع الحاضر، ثم فقدان ميزة الدقة وثمرة التركيز وفضيلة الإتقان!

فإذا كان مصير من فتح بابًا واحدًا من تلك الأبواب الثلاثة ودخل منه ولم يعوَّد أن يخسر حاضره ولا يجد التركيز ولا الدقة ولا الإتقان، فما بال الذي فتح الأبواب الثلاثة

كلها في كل وقت؛ يدخل من أحد الأبواب الثلاثة ولا يعود منه بصعوبة إلا ليدخل في الثاني، ومن الثاني للثالث.. وهكذا، دائرة مفرغة لا تنتهي، ولا يعيش الواقع أبدًا، وبهذا يعيش حياته بلا تركيز ولا دقة ولا إتقان، فتنتهي قصة حياته بلا فائدة تُرجَى ولا سيرة تُحكَى!

تذكرت نظرية الأبواب الثلاثة الآن؛ لأنها قريبة الصلة جدًّا بالمبدأ الثاني للتفكير خارج الصندوق.. افصل التفكير عن التنفيذ.. فأنا لما فتحت باب المستقبل وجدت أن صُنَّاع القرار في بلدي لن يتحمسوا للفكرة ولن يساعدوني على تنفيذها، وفتحت باب الماضي فوجدتهم والذين من قبلهم لم يحترموا فعلًا فكرة إنشاء نظام انتخابي غير قابل للاختراق أو التزويرعلى مر العصور، فتهت بين البابين، لا أكاد أخرج من باب المستقبل حتى أدخل في الماضي، فكانت النتيجة أنني انفصلت عن اللحظة الحالية، عن الواقع، فتوقفت عن الإبداع ولم أعمل على الفكرة نفسها خوفًا من عقبات التنفيذ، وهذا ما أشار إليه الدكتور ولسون في المقطع الذي كان يدرب فيه تلامذته في قسم التأليف الموسيقي على ترك التفكير في مشكلات العزف أثناء التأليف.. والتركيز فقط على الإبداع!

وهذا ما عليَّ فعله..

لا بد وأن أفصل التفكير عن التنفيذ!

إن تسلسل المبادئ منطقي جدًّا حتى الآن.. أولًا أذاكر الواقع جيدًا قبل التمرد عليه، فإما أن أجد الحل بداخل الصندوق أو أن أتعرف منه على أصل المشكلة، فإذا تعرفت على أصل المشكلة ولم أجد الحل بداخل الصندوق بدأت في العمل على حلها من خارج الصندوق؛ حيث الإبداع والتخيل والابتكار.. وفصل التفكير عن التنفيذ!

لقد كنت دائمًا تحت انطباع أن قلة الإمكانيات وحجم عقبات التنفيذ هي التي تقتل الإبداع، ولكنني الآن تعلمت من المبدأ الثاني للتفكير خارج الصندوق أننا نحن الذين نقتل بأيدينا قدرتنا على الإبداع والابتكار؛ ذلك لأننا ننشغل بالتنفيذ أثناء التفكير، فإذا تحرر الإنسان فعلًا من التفكير في العقبات وقت الإبداع، فإنه سيُحَلِّق بأفكاره وينطلق بعيدًا بلا توقف حتى يصل إلى حيث لم يصل أحد قبله، وهذا ما يسمى (ريادة الأفكار)، ثم يأتي بعد ذلك وقت التنفيذ، وهذا أمر آخر وله حسابات وآليات مختلفة، ولكن ما يهمنا هنا هو الوصول بالفكر والخيال إلى أبعد مدى.

سمعت مقولة في أحد المقاطع التي أعطانيها أستاذي، لا أعتقد أنني سأنساها ما حييت، وأظن أنها كانت سببًا لإلهام العديد من المبدعين على مستوى العالم.. كان شابٌّ صغير يتحدث بهدوء أمام الكاميرا، وقد كُتِب تحت الشاشة ما يفيد أن ذلك الشاب هو أصغر ملياردير في العالم، وفهمت بعد ذلك من سياق الكلام أنه من أكثر الناس على الكرة الأرضية إنتاجًا للأفكار الإبداعية التي تغير وجه العالم كل يوم، ذلك الشاب الذي يُعتبر آلة جبارة للتفكير من خارج الصندوق قال:

«عندما تفكر وكأنك قد امتلكت مصباح علاء الدين السحري، عندما تفكر وكأن جميع طلباتك مُجابة، عندما تفكر وكأن العالم كله يحبس أنفاسه ويتحرَّق شوقًا للتعرف على ما تحلم به ليضع كافة إمكاناته تحت قدميك، عند ذلك فقط، يبدأ الإبداع!».

توقفت عند ذلك المقطع كثيرًا وسرحت لبعض الوقت لتدبر ما تعلمت حتى الآن، ثم قلت لنفسي بشيء من الرضا والراحة:

«المبدأ الأول: ذاكر الواقع جيدًا قبل التمرد عليه.. والمبدأ الثاني: افصل التفكير عن التنفيذ..».

وفجأة...

وأنا ما زلت فيها، فُتِحَ باب سيارتي لأجده واقفًا أمامي، كان شابًّا طويلًا نحيفًا يضع سكينًا على رقبتي وهو يقول: «انزل من العربية من غير دوشة»!

المُستشفى.. والمبادئ الستة

وقفت أمامه وأنا في غاية الخجل، لقد تركته في الليلة السابقة على أساس أنني ذاهب إلى بيتي على أن يستدعيني هو في الوقت الذي يراه مناسبًا، ولكني من شدة لهفتي لمشاهدة المقاطع التي أعطانيها والتي تتحدث عن المبدأ الثاني للتفكير خارج الصندوق، جلست في السيارة أمام بيته أشاهدها جميعًا حتى قبيل الفجر حين وضع ذلك الشاب السكين على رقبتي وأخذ السيارة واللابتوب وكل ما معي من النقود بعد أن ضربني عدة ضربات عنيفة على رأسي بكعب السكين، وتركني أنزف على الأرض شبه فاقد للوعي، ولكن ليس ذلك ما كان يشغلني وقتها، ولكن كل ما شغلني في ذلك الوقت أنني فقدت تليفوني المحمول!

شعرت أن قواي تنهار، الدم الذي ينزف من رأسي يشير مع كل لحظة إلى نفاد مخزوني من الوعي، لم أفكر في أي شيء وقتها إلا أنني حتمًا سأفقد الوعي وقد يكتب الله لي النجاة فيأخذني أحد إلى أقرب مُستشفى، وقد أمكث بها أيامًا قبل أن أستطيع الحصول على شريحة جديدة بنفس الرقم الذي هو وسيلة الاتصال الوحيدة بيني وبين أستاذي، فأنا للأسف لا أحفظ رقمه، وهو الذي يتصل بي على هذا الرقم ويرسل لي عليه رسائله النصية، فماذا لو أرسل لي أو حتى طلبني خلال هذه الفترة؟

تحاملت على نفسي وتوجهت إلى بابه، أعرف أنه لا يحق لي أن أفرض عليه نفسي، ولا أن أطرق بابه بدون موعد سابق، ولكن هذا ما فعلته.. طرقت باب أستاذي ففتحه لي على الفور، وكأنه كان في انتظاري، قلت بصعوبة: «ما هي بقية مبادئ التفكير خارج الصندوق يا سيدي؟».

لم تظهر على وجهه المريح، دائمًا، علامات الاندهاش ولم يظهر انزعاجًا من شكلي ولا من الدماء التي تسيل من رأسي على وجهي وملابسي.. بالعكس، تعامل معي بهدوء الخبير الذي مر بذلك الموقف آلاف المرات، ظلت ابتسامته على وجهه وهو يساعدني في الدخول، أجلسني وغاب للحظات دخلت فيها في نفق بين الوعي واللاوعي، رأيت بصعوبة يده وهي تقترب من رأسي وفيها شاش أو قطن، ولما رأيت أن ابتسامته المعهودة مازالت لا تفارق وجهه شعرت بالاطمئنان. ثم أفقت في المستشفى بعد ثلاثة أيام!

عجيب أمر هذا الإنسان! ضربات بسيطة على رأسه تجعله يغيب عن الوعي لعدة أيام، أين الذكاء والفهم؟ أين القوة والعزيمة؟ أين الإرادة وحسن الإدارة؟ الإنسان ضعيف.. تذكرت تلك الكلمة التي قالها محمود عبدالعزيز في فيلم إبراهيم الأبيض وقد استخدمها الشباب بإسقاطات سياسية على الفيسبوك..

صحيح، الإنسان ضعيف!

زارني أولادي لأول مرة بعدما أفقت، رأيت على وجوههم استغرابًا من شكلي، طلبت مرآة لأنظر إلى وجهي فوجدته متورمًا من عدة جهات، ومتلونًا بألوان مختلفة عند الجبهة وحول العين والأنف، هذا ليس أنا، لهم حق أن يستغربوني، سمعت صوتًا يفيد باستقبالي رسالة

نصية على تليفوني المحمول، أخذته وقرأت الرسالة لأجدها إحدى رسائل خدمة استقبال الأخبار: «انهيار عقار مكون من 7 طوابق بسيدي جابر بالإسكندرية».. متى ستنتهي هذه المأساة؟ ولكن.. إنه تليفوني المحمول! ألم يسرقه ذلك الشاب؟!

أخبرتني زوجتي أنه كان لصًّا غير محترف، شابًّا في مقتبل العمر ولكنه مُدمِن، شعر باليأس من قلة المال بينما جسمه يصرخ من الألم طلبًا للمخدر، فخرج وفي يده سكين ليبحث عن حل لمشكلته فوجدني، ضربني وانطلق بسيارتي مباشرةً للطريق العام حيث وجد نفسه بلا مقدمات أمام كمين شرطة، ظهرت عليه علامات الارتباك فقبضوا عليه، اتصل بزوجتي ضابط القسم بعدما وجد رقمًا مسجلًا باسم المنزل (Home) على تليفوني المحمول الذي اعترف الشاب بسرقته مع السيارة بما فيها، ذهبت هي في فزع إلى أقرب مستشفى من المكان الذي قال الشاب إنه ضربني فيه لتجدني في قسم الحالات الحرجة به، وهأنا الآن طريح الفراش وتليفوني في يدي وزوجتي والأولاد يجلسون حولي. الحمد لله.

لماذا فعل الشاب ذلك؟ لماذا أقبل على المخدرات في الأساس؟ ولماذا وصل إلى مرحلة الإدمان؟ لعله بحث في صناديق حياته فلم يجد حلًّا لمشكلاته فقرر الخروج منها ليجد الحل من خارج الصندوق، ولكنه توصل للحل الخطأ.. الجريمة.. هناك فرق بين التفكير خارج الصندوق والتفكير خارج القانون والأخلاق، وهذا أمر يجب على من ينوي التفكير خارج الصندوق إدراكه، وإلا نظرنا إلى إلقاء المخلفات في الشارع وعدم وضعها في صندوق القمامة على أنه نوع من التفكير خارج الصندوق!

لماذا لا أراجع نفسي مرة ثانية حتى لا أفعل مثلما فعل ذلك الشاب؟ نعم.. لقد بحثت في الصندوق جيدًا فرأيت بلدي يركب قطار الديمقراطية التي تقوم في الأساس على فكرة الانتخابات والاستفتاءات، بينما النظام الانتخابي الحالي من السذاجة والضعف لدرجة أننا كلما أقدمنا على عملية انتخابات هامة تطلعنا لاستنفار جميع أفراد الشعب ممن لهم حق الانتخاب ليقفوا ساعات طوالا في الحر أو البرد وأمام جميع المخاطر والأهوال، وطالبنا الجهات الأمنية بأن تكون في أهبة الاستعداد لأعمال الشغب والبلطجة، ولعلنا نلجأ في بعض الحالات للرقابة الدولية لضمان نزاهة الانتخابات ونتائجها.. أفهم أن نلجأ لتلك الإجراءات الاستثنائية في ظرف معين ووقت محدد، لكن أن ندير العملية الديمقراطية دائمًا على أنها حالة استثنائية فهذا غير مقبول!

ولذلك، وبعد المُراجعة، فأنا الآن على قناعة تامة أن بداية الحل هي في نظام انتخابي شديد المصرية، يعامل المواطن بآدمية واحترام أثناء أدائه لدوره في العملية الديمقراطية، سواء كان ناخبًا أو مُنَظمًا أو مُشرفًا أو مُراقبًا أو مُرشحًا، ولا بد وأن يكون هذا النظام قويًّا لا يُخترق، تثق به الناس وتقبل بسببه على أداء دورهم الديمقراطي بـدون شك ولا ريبة ولا تعب زائد أو إهدار للكرامة الإنسانية، هذا ليس كل الحل لاستقرار البلد، ولكنه فقط (الفيشة) بداية الحل الذي بدونه نكون وكأننا نبني الدولة الديمقراطية على باطل.. وما بُنِيَ على باطل فهو باطل..

سمعت طرقة خفيفة على باب غرفتي في المستشفى، غرفة 302، أعتقد أنني سأتذكر رقم

هذه الغرفة ما حييت، ففيها تعلمت الكثير!

دخلت الممرضة مُبتسمة وهي تحمل باقة صغيرة من الورد الأبيض، جميل الورد، ولكن الغرفة أصبحت وكأنها مشتل من كثرة الورود التي أرسلها الأحباب والأصدقاء، أكرمهم الله، ولكن هذا يكفي، طلبت من الممرضة أن تضعه في الخارج بعد أن تعطيني الكارت المصاحب له لأعرف من أرسله فأشكره، وأشكر الجميع بعد الخروج من المستشفى، في القريب إن شاء الله..

لم يكن كارتًا، كان ظرفًا غليظًا بداخله خطاب أو رسالة طويلة، لم يحمل الظرف اسم المرسل، ورغم الألم وعدم التركيز فإنني شعرت على الفور أنها رسالة من أستاذي، وكنت مُحِقًّا، طلبت من الممرضة وضع باقة الورود البيضاء بجواري، كانت الساعة العاشرة مساءً، طلبت إدارة المستشفى من الزوار أن يرحلوا لانتهاء موعد الزيارة فودعتني زوجتي واصطحبت الأولاد لارتباطها معهم بموعد المدرسة في الصباح، نظرت زوجتي للرسالة في يدي وقالت بابتسامة لها مغزى: «عارفة إنك حتلاقي اللي تعمله لغاية ماشوفك الصبح إن شاء الله».. وكانت على حق.. فأنا لم أترك الرسالة من يدي، ولم أتوقف عن إعادة قراءتها والتفكير في محتواها حتى جاءت لزيارتي في صباح اليوم التالي لتجدني مستبشرًا فَرِحًا، لأني بفضل الله ما بين ليلة وضحاها تعلمت من رسالة أستاذي الغالية المبادئ الستة... للتفكير خارج الصندوق!

المبدأ الثالث

تلقت شركة الصابون شكوى من عملائها لأن بعض العبوات كانت تصل إليهم فارغة، فاقترح البعض على إدارة المصنع تصميم جهاز يعمل بأشعة الليزر للتعرف على العبوات الفارغة أثناء مرورها على سير التعبئة ليتم سحبها آليًّا من على خط الإنتاج، وقد كان هذا الحل مناسبًا رغم تعقيده وتكلفته العالية..

بالمقابل فكر أحد عمال التغليف في المصنع من خارج الصندوق، فجاء بمروحة كبيرة وشغلها على أعلى درجة، ثم وجه هواءها إلى السير الأخير في خط الإنتاج والذي تمر عليه عبوات الصابون، فطارت العبوات الخالية من على السير قبل وصولها إلى صناديق التعبئة ولم يتبق إلا العبوات التي تحتوي على الصابون!

الفكرتان حققتا الغرض، وهو استبعاد العبوات الفارغة، ولكن الفكرة الأبسط، فكرة المروحة، هي التي بهرت العالم ومازالت تُحكى حتى يومنا هذا لتؤكد المبدأ الذي تعلمته وأنا أقرأ رسالة أستاذي في المستشفى، في الغرفة رقم 302، إنه المبدأ الثالث للتفكير خارج الصندوق الذي يقول:

(إن أبسط الأفكار هي غالبًا أعظم الأفكار).

كانت رسالة أستاذي كنزًا بمعنى الكلمة، كتب لي أنه أخذني إلى المستشفى ولم يتركني فيها إلا بعدما اطمأن على حالتي من الأطباء، وقرر وقتها أن يكتب لي جميع مبادئ التفكير خارج الصندوق، المبادئ الستة، مع ملاحظاته على كل مبدأ منها، قال في رسالته إنه فعل ذلك حتى يعطيني فرصة لاستغلال وقتي أثناء الاستشفاء في التفكير والتدبر، وحثني على سرعة التحرك بفكرتي بعدما يتم الله تعالى عليَّ نعمته بالشفاء حيث إنه يعتقد أن فكرة إنشاء نظام انتخابي مصري لا يخترق وغير قابل للتزوير هو فعلًا ما يحتاجه بلدي الآن..

كيف لي أن أشكرك يا أستاذي؟

أكدت الرسالة أن المبدأ الأول للتفكير خارج الصندوق هو: (ذاكر الواقع جيدًا قبل التمرد عليه).. وأن المبدأ الثاني هو: (افصل التفكير عن التنفيذ).. ثم بدأ أستاذي في التعريف بالمبدأ الثالث: (إن أبسط الأفكار هي غالبًا أعظم الأفكار)..

تذكرت وأنا أتأمل في معنى المبدأ الثالث عشرات القصص من التراث الإداري العالمي والتي تؤكد ذلك المعنى البسيط العظيم في حد ذاته، ومن أشهرها القصة التي تفيد أن بعض علماء الفضاء اجتهدوا لاختراع قلم يكتب به رائد الفضاء وهو خارج المجال الجوي حيث تنعدم الجاذبية فيرتفع السائل في القلم بدلًا من أن ينزل على سن القلم ثم منه على الورق، وبعد العديد من الأبحاث والمحاولات ظهر من يمسك بقلم رصاص ليكون هو القلم المُعتمد للاستخدام في رحلات الفضاء.. فكانت عظمة الفكرة في بساطتها!

نجد أن الروس قد استخدموا كثيرًا قصة القلم الرصاص ورائد الفضاء للتدليل على

تفوقهم في التفكير الإبداعي على الأمريكان، ومن ناحية أخرى قد نجد من الأمريكان من يقول إنهم هم الذين اكتشفوا استخدام القلم الرصاص في الفضاء لبيان تفوقهم الإبداعي على الروس، وهناك من يقول إنها قصة رمزية ولم تحدث أصلًا، ولكن ما يهمنا هنا هو أن الفكرة نفسها كانت عظيمة لبساطتها فتسابقت عليها الشعوب لتنتسب إليها.

وهل هناك دليل على صحة المبدأ الثالث أقوى مما حدث في سيناء سنة 1973؟

هل هناك من كان يصدق أن السلاح الذي سيهدم خط بارليف المنيع هو الماء؟ أبعد كل تلك الدعاية والتحصينات والأفكار والدراسات لمواجهة ذلك الخط الدفاعي الذي يعد الأقوى في التاريخ الحديث، والذي كان يبدأ من قناة السويس حتى عمق 12 كم داخل شبه جزيرة سيناء على امتداد الضفة الشرقية للقناة، وبعد كل التجهيزات الهندسية ومرابض الدبابات والمدفعية واحتياطيات المدرعات ووحدات المدفعية الميكانيكية على طول القناة، يخرج علينا أحد عباقرة الجيش المصري ليقول: «إذا كان خط بارليف هذا سدًّا ترابيًّا -أي أنه من التراب- فلماذا لا نَضُخ الماء عليه فينهار التراب؟».. وقد كان!

تم استيراد مضخات المياه وقتها عن طريق وزارة الزراعة كتمويه على أنها أدوات لرش المحاصيل الزراعية، ولم تتخيل المخابرات الإسرائيلية أبدًا وقتها أن تلك المضخات الزراعية هي السلاح الفتاك الذي سيهدم أقوى خط دفاعي في العصر الحديث، وانهار الساتر الترابي معلنًا من مصر للعالم أجمع أن أبسط الأفكار هي غالبًا أعظم الأفكار!

ومع ذلك فهناك الكثير ممن يعتقدون أنه كلما تعقدت الأفكار والألفاظ زادت قيمتها، بينما العكس تمامًا هو الصحيح!

تُعتَبر سيرة الشيخ زايد، رحمه الله - مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة - من أهم الدلائل وأوضحها على صحة المبدأ الثالث للتفكير خارج الصندوق، فمن يتتبع سيرة الرجل ومسيرته لن يجد إلا أفكارًا بسيطة وخطابًا خاليًا من التشدق والتعقيد، وبهذه البساطة وصلت أفكاره واضحة لبني شعبه والعالم من ورائهم، فالتفوا حوله وتوحدت دولته واستقرت وارتقت على ضوء أفكاره وكلماته البسيطة العظيمة التي لا يزال العالم يرى آثارها إلى يومنا هذا!

لقد زادني هذا المبدأ ثباتًا على فكرتي، لقد خشيت أن يستقل الناس فكرتي إذا قدمتها كخطوة أولى للخروج بمصر من دائرة العنف والفوضى وسوء الإدارة، فقد يُحبَط بعضهم ويقول: «أبعد كل تلك الأبحاث وكل كلامك عن آليات الإدارة الحديثة تخرج علينا بمثل هذا الاقتراح البديهي، الانتخابات؟!» نعم الانتخابات، وماذا غيرها يصلح كبداية للإصلاح في نظام ديمقراطي وليد؟

نحن لا نسعى لصورة الديمقراطية، دعاية وصناديق وانتخابات ونتائج، وفي النهاية من يمتلك القدرة على التزوير هو الذي يفوز ويحكم، ومن يمتلك القدرة على التشكيك في النتائج هو الذي يحشد ويهدد، ويستمر الصراع وينتهي الأمل في الاستقرار، أي إصلاح يرجى في مثل ذلك المناخ؟ لا بد أن نبدأ من نقطة البداية مهما بدت بسيطة وبديهية، وإذا حدثتني نفسي مرة أخرى عن بساطة فكرة إنشاء نظام انتخابي مصري لا يخترق وغير قابل للتزوير كخطوة أولى لتقدم البلد، فسأذكرها بالمبدأ الثالث للتفكير خارج الصندوق

وأقول لها بكل ثقة: «يا نفسي، إن أبسط الأفكار هي، غالبًا، أعظم الأفكار».

التصالُح مع النفس؟

جلست بين يديه في أدب وقلت: «سيدي، وما العمل في وقت البلاء؟».. قال: «يا ولدي، إن الحكيم لا ينشغل برفع البلاء، فالله رافعه وقتما يشاء، ولكن الحكيم إذا ابتُلي غالبَ نفسَه على الشكر في السرّاء والصبر في الضرّاء».. فقبلت يده كما تعودت وانصرفت وقد عَلِمت أن نفسي التي بين جنبيَّ هي أخطر الأعداء!

تذكرت تلك المحادثة مع أستاذي منذ سنوات، حسبت أني نسيتها، ولكنني غالبًا لا أنسى كلام أستاذي، تعلمت يومها أن عدوي الأول في الحياة هو نفسي، واستدعيت ذلك فور قراءتي لسؤال عابر في رسالة أستاذي التي عَلَّمني فيها المبادئ الستة للتفكير خارج الصندوق.. «متى يتصالح الإنسان مع نفسه؟».. لم يكن بالنسبة لي مجرد سؤال عابر في رسالة، فقد كان الأمر أعمق من ذلك بكثير!

ما قيمة التصالح مع النفس؟ وما هو أصلًا التصالح مع النفس؟

هناك قليل من الناس قد تصالحوا تمامًا مع أنفسهم على الخير، كل الخير، هم أصحاب الأنفس المطمئنة والقلوب الراضية، ولا أعتقد أبدًا أن أستاذي يظن أنني واحد من هؤلاء، فهو يعرفني جيدًا!

ومن ناحية أخرى، هناك من اتفق مع نفسه على الشر، هي تطاوعه على المُحَرمات والمُنكرات، وهو لا يواجهها ولا يمانعها على ذلك حتى وإن آذته هو شخصيًّا فضلًا عن غيره من سائر المخلوقات، إذن هذا قد عقد صُلحًا مع نفسه على الشر.. فإذا نظرت لمثل ذلك الإنسان وجدته وكأنه متصالحٌ مع نفسه، تراه مندفعًا نحو الشر بكل قوة وعزيمة وإصرار، لا يقلق ولا يتردد عند قيامه بأحقر الأفعال، أو تلفظه بأقبح الأقوال، يضحك بصوت عالٍ معلنًا صلحه مع نفسه على الشر، أو لعله يفعل ذلك ليداري ما في قلبه من الألم.. فهل هذا هو نوع التصالح مع النفس الذي يدلني عليه أستاذي؟ لا أعتقد!

إذن، أي نوع من التصالح مع النفس الذي يشير إليه أستاذي؟

إن الذي يرجو السلامة غالبًا ما يعيش في معارك متواصلة مع نفسه، هي تأمره بالسوء، وهو يقمعها ويواجهها، لا يطاوعها إلا ليراوغها ثم يباغتها فيقهرها ويغلبها، أو تقهره هي وتغلبه، إذن هي معركة مستمرة وحرب لا تتوقف، فكيف يرجى لمثل هذا الإنسان أن يتصالح مع نفسه؟!

ولكن كعادة أستاذي، لم يتركني كثيرًا للهواجس، أخبرني في رسالته أن التصالح المطلوب مع النفس ليس تصالحًا شاملًا وعامًّا على الخير أو الشر، ولكنه فقط تصالح الحوار، أي أن الإنسان يعتاد أن يجلس مع نفسه في خلوة على ما بينهما من خلاف واختلاف، يحدثها بكل صراحة ويتفق معها ألا تكذب عليه ولا يكذب عليها، يتحدثان معًا بدون هروب أو مداراة أو أسرار..

إن مدرسة التحليل النفسي تقوم بشكل أو بآخر على فكرة قريبة من ذلك المفهوم،

فالأسرار تنشأ بين الإنسان ونفسه إذا فشلا في الحديث الصريح فيما بينهما، فيجد الإنسان عند ذلك أنه يتصرف بحماقة ولا يدري سببًا وجيهًا لذلك، لا يدري لماذا يقدم بكل عزيمة وإصرار على ما يضـره ولا ينفعه، ولا يدري سببًا لاكتئابه المفاجئ أو لثورات متتالية من الغضب ليس لها مبرر أو مقدمات منطقية، ومع تكرار تلك المشاعر والأحاسيس يزيد اضطراب الإنسان وقد يصاب بما يسمى مجازًا المرض النفسي، وقد يجد نفسه في ذلك المشهد الشهير الذي يحاول أن ينام ويسترخي فيه على كرسي مريح أو شيزلونج أمام طبيبه في محاولة منهما للبحث عن تلك الأسرار المدفونة والدافعة لتلك التصرفات الغريبة وغير المبررة، وكأنه في جلسة صلح عُرفية مع نفسه!

الآن فهمت لماذا دعاني أستاذي في رسالته للتصالح مع نفسي، هو لم يدعني لأن أتفق معها تمامًا على الخير أو الشر، فهو لا يظن بي القدرة على فعل هذا ولا ذاك.. وهو صادق في ظنه.. ولكنه دعاني للتصالح مع نفسي بمعنى أن أبدأ معها في الحديث بصراحة وصدق حتى مع الاختلاف، هذا، وقد حكى لي في رسالته عن عظماء وعلماء وأولياء اعتادوا الحديث مع أنفسهم وكأنهم يجالسون غيرهم من الناس؛ فكان لذلك أعظم الأثر على رقي فكرهم ووضوح رؤيتهم..

قال أستاذي فيما قال في رسالته: «لا سبيل لك يا ولدي لحل مشكلاتك والإجابة عن سؤالاتك إلا بتدبر جميع مبادئ التفكير خارج الصندوق، فأنت إذا ما ذاكرت الواقع جيدًا قبل التمرد عليه، وفصلت التفكير عن التنفيذ، وبحثت بين أفكارك عن أبسطها لتجد أنها غالبًا أعظمها.. هنا ستجد نفسك واقفًا وجهًا لوجه أمام المبدأ الرابع من مبادئ التفكير خارج الصندوق.. وهذا المبدأ لن يقدر عليه إلا من كان متصالحًا مع نفسه قبل أن يكون متصالحًا مع الآخرين؛ ولذلك فعليك بعقد الصلح مع نفسك من الآن، ابدأ معها في الحوار من الآن، وإلا أضعت المبدأ الرابع.. وأضعت معه فُرصتك في رؤية فكرتك»!

المبدأ الرابع (تَحَدَّث عن فكرتك حتى تَراها)

هذا إذن هو المبدأ الرابع للتفكير خارج الصندوق.. تحدث عن فكرتك حتى تراها.. فهمت الآن لماذا دعاني أستاذي للتصالح مع نفسي والحوار معها، لأن المقصود من هذا المبدأ هو ليس فقط الحديث عن الفكرة مع الناس، وإنما المقصود هو الحديث عن الفكرة مع نفسي أولًا، ثم بعد ذلك مع الناس؛ لتظهر مزاياها وعيوبها وتتشكل وتتبلور وتتضح وتنجلي حتى أراها!

ومما يؤكد معنى المبدأ الرابع للتفكير خارج الصندوق تلك القصة الشهيرة التي تفيد بأن رجلًا حسن المظهر وقف أمام سقراط، وبدا واثقًا من نفسه متباهيًا بمنظره، فقال له سقراط: تكلم حتى أراك!

صحيح، فكيف لي التعرف على إنسان لا يصرح بما بداخله؟ وهذا تمامًا هو حال الفكرة، فكيف لي التعرف على الفكرة التي لم تتكلم؟

إن الفكرة تأتي على الإنسان كزائر غريب، ولا تتاح الفرصة فعلًا للتعرف على هذا الزائر ورؤيته بوضوح إلا إذا تكلم، وكلام الفكرة يكون على لسان صاحبها، لذلك من شعر أن لديه فكرة ما وشعر أن لها قيمة، فلا يصح أبدًا أن يبقيها مدفونة بداخله، بل عليه أن يتحدث عنها كثيرًا مع نفسه ومع غيره من أهل الثقة والخبرة وإلا فلن يراها أبدًا على حقيقتها..

كم هي خطيرة تلك الأفكار السِّرِّيّة.. فكم من أقوام احتفظوا بأفكارهم وقرروا عدم الحديث عنها مع أنفسهم فضلًا عنها مع بقية الناس، فمنهم من اعتقد بالخطأ أن أفكاره عظيمة وبناءة بينما هي أفكار عبيطة ومُدَمرة، ومنهم من ظن في أفكاره السوء بينما هي أفكار محترمة وتستحق التأمل والتدبر، وكل هذا لأنهم حافظوا على سريتها تحت دعاوى الخوف من النقد ومحاربة أعداء النجاح، أو الخوف من أن يسرق غيرهم أفكارهم، فظلت أفكارهم محبوسة في قلوبهم وعقولهم ولم يتكلموا عنها حتى ماتت بداخلهم وهم لا يشعرون، أو كبرت بداخلهم وسيطرت عليهم فأهلكتهم كما أهلكت الذين من قَبلهم.. إذن أستاذي يدعوني في المبدأ الرابع من مبادئ التفكير خارج الصندوق للتحدث كثيرًا مع نفسي ومع الناس عن فكرتي حتى أراها.. وهو كذلك!

رحلة البحث عن لايك

من أصبح التحصل على رضا الناس هو كل همه فرَّق الله عليه شملَه، وباعد بينه وبين الحقيقة، وجعله يُلقي بنفسه طواعيةً في تلك الهوة السحيقة، تجده لا يدخل على الفيسبوك إلا ليرى كم من الأصدقاء أعجبوا بتعليق هاجم فيه أُناسًا وعَيَّرها، أو بصورةٍ قبيحةٍ حَفظها وقطَّعَها ثم شيَّرها، وهو على ذلك كل ساعة، تستوي عنده الحقيقة والإشاعة، يفرح كلما زادت اللايكات، ويحزن إذا قل الإعجاب وغابت المشاركات، فذلك الذي عَبَد الظهور واستجدى الحضور، يقترف كل حيلة ولا يعدم الوسيلة، يطلب رضا الناس بالكيبورد والكاميرا والمايك، فأفنى حياته في رحلة البحث عن لايك!

إن المقصود من التحدث عن الفكرة في هذه المرحلة من التفكير خارج الصندوق ليس التحصل على إعجاب الناس وتشجيعهم كما يتطلع البعض في رحلتهم في الفيسبوك للبحث عن لايك، وإنما المقصود في هذه المرحلة هو استبيان عيوب الفكرة قبل مزاياها، فهناك من لا يتحدث عن أفكاره خوفًا ممن قد يهاجمها من أعداء النجاح، أو من الكارهين له بصفة شخصية، ولكنه إذا تأمل قليلًا فسيكتشف حتمًا أنهم يقدمون بذلك له ولأفكاره خدمة كبيرة وهم لا يشعرون، فهم ينبهونه لجوانب النقص في فكرته وكأنهم يعملون معه في نفس الفريق الذي يحرص على تنقية أفكاره من كل شائبة، هم بذلك يخدمونه فعلاً، فقد يكون بالفكرة من العيوب ما يقتلها، أو قد تكون ساذجة أو غير مناسبة للوقت أو الظروف الراهنة، وقد تكون الفكرة موجودة بالفعل ومطبقة في الواقع ولكن صاحبها لا يعلم ذلك، فيبذل الوقت والجهد والمال على إعادة اختراع العجلة، بينما الناس يحركون بها الآن في الشوارع والطرقات.. فقليل من الإنصاف يكفي لأن يدرك الإنسان أن انتقاد أفكاره والهجوم عليها يعمل عمل الضوء المسلط على كافة جوانبها السلبية منها قبل الإيجابية، فيراها على حقيقتها، ويقيمها بموضوعية، فيحفظ ما فيها من قوة ويُعالج ما فيها من ضعف!

إذن أثناء العمل على الفكرة يجب التحدث عنها كثيرًا بدون طلب المدح أو الثناء، ولكن الهدف من التحدث عن الفكرة هو اكتشاف مواطن الضعف فيها قبل القوة، بذلك تقوى الفكرة وتصمد..

وهناك من خاف على فكرته من السرقة، فكان أمام خيارين:

إما أن يترك الفكرة بداخله محفوظة مكبوتة، وبذلك تكون آمنة، ولكنه لن يراها أبدًا على حقيقتها فيقدم بذلك على مغامرة غير محسوبة العواقب، فقد يبدأ فعلًا في تنفيذ الفكرة قبل أن يتحدث عنها وقبل أن يراها فيكتشف فيها أثناء التنفيذ عيوبًا غير قابلة للإصلاح، ويقول يا ليتني اكتشفت عيوب الفكرة قبل العمل على تنفيذها،

يا ليتني تكلمت عنها أكثر مع نفسي، يا ليتني تكلمت عنها أكثر مع أهل الخبرة قبل أهل الثقة، ولكن يكون ذلك عادةً وللأسف بعد فوات الأوان، وبعد خسارة الكثير من الجهد والوقت والمال، صحيح، لا خاب من استشار!

والخيار الثاني هو أن يتحدث عن فكرته كثيرًا مع نفسه ومع غيره من الناس ليكتشفها ويراها على حقيقتها مع التضحية بأن تُسرَق منه، وهذه فعلًا مُخاطرة، ولكنها يمكن أن تكون مُخاطرة محسوبة؛ ذلك بأن يجتهد صاحب الفكرة في الحديث مع من يحسب أنهم أرقى من أن يسرقوا أفكاره، وأن يتحدث عنها بالإجمال بدون الدخول في أدق التفاصيل، ويجوز أن يسجلها باسمه ليحفظ حقه فيها إذا كانت مثلًا تتعلق بنشاط تجاري أو براءة اختراع أو اكتشاف علمي أو غير ذلك مما يمكن إثباته، ومع ذلك فإن المخاطرة ستظل قائمة، ولكن هذا هو ثمن رؤية الفكرة على حقيقتها، وكما يقول المثل الإنجليزي: «إن وقوف المراكب على الميناء وعدم الإبحار بها هو أكثر ما يضمن لها الأمان»!

فإما أن تبحر بفكرتك لتصل بها إلى مبتغاك، وإما أن تحتفظ بها آمنة مستقرة في وجدانك بما فيها من خلل ونواقص وعيوب، والقرار لك في النهاية..

أما عن نفسي فقد قررت العمل بالمبدأ الرابع للتفكير خارج الصندوق، سأبدأ في الحديث عن فكرتي مع نفسي ومع الجميع حتى أراها!

تجولت كثيرًا بين المحافظات أعقد الندوات وألقي المحاضرات، أشرح ما تعلمته من أستاذي في كيفية تقييم أداء الدولة وكأني أنظر إليها من على متن طائرة مروحية، عرضت المُربعات الأربعة وكيفية الوصول لأصل المشكلة، وحاولت جاهدًا أن أشرح منهجيتي في الوصول إلى أن بداية حل مشكلة بلدي هو إنشاء نظام إنتخابي مصري خالص لا يخترق وغير قابل للتزوير، فتحت نقاشات مطوَّلة مع أصدقائي من محبي الإدارة على الفيسبوك وتلقيت مئات الاقتراحات والملاحظات والاستفسارات، وبدأت الفكرة فعلًا في الظهور.. هناك نظرية تُسمَّى (الظاهرة القَمَرية في استبيان الهدف).. اسمها سخيف، لكن معناها جميل، تفيد تلك النظرية أن الإنسان عندما يضع هدفًا لنفسه في الحياة يراه من بعيد وكأنه هلال، أي أنه مثل القمر غير المكتمل الذي لا يظهر منه إلا مُجرد خَط هلالي رفيع مُضيء، وكلما تقدم الإنسان في السعي نحو هدفه اتضح وانكشف وانجلى فظهرمكتملاً مثل البدر الذي يتضح لنا منه كل يوم جزءٌ حتى إذا جاء منتصف الشهر ظهر مكتملًا لا يُضام في رؤيته أحد.. وهذا تمامًا ما حدث معي عندما بدأت في الحديث عن فكرتي!

بدأت عندي الفكرة مُجردة، ليس لها شكلٌ معينٌ، مُجرد أنني أريد العمل على إنشاء نظامٍ انتخابي يناسبنا في مصر وهو مع ذلك سهل وذكي ولا يخترق وغير قابل للتزوير، فقط، هذا كل ما كان في ذهني، ولكن بعد الكثير والكثير من الحديث مع النفس ومع الناس، بدأت فعلًا أرى فكرتي!

بدأت أرى المُجَمعات الانتخابية في كل منطقة وحي في مصر على امتداد محافظاتها، رأيت مبانيها الجميلة بطابعها الهندسي الفريد وساحات انتظار السيارات الواسعة أمامها، رأيت كيفية الدخول السهل فيها والخروج المنظم منها، رأيت الرخام الأبيض والتكييف المركزي، رأيت الشاشات الذكية على الحوائط والخطوط الملونة على الأرض التي ترشد الناخبين، كل إلى طريقه ولجنته، رأيت شاشات الانتخاب الذكية التي حلَّت مكان البطاقات الورقية، قرأت في رأسي نص الرسالة الهاتفية التي تدعو كل ناخب للمجمع

الانتخابي القريب منه مع تحديد اليوم واللون الذي سيمشي عليه داخل المُجَمع ليصل به إلى مكان لجنته بسهولة ويسر، رأيت تفاصيل المراقبة والغرف التي سيجلس بها أعضاء الجهات الإعلامية ومنظمات المجتمع المدني المحلية والدولية..

شاهدت في رأسي شاشات الفضائيات وهي تعرض الإحصاءات المباشرة لعمليات التصويت والتي لا يمكن معها التلاعب والتزوير استنادًا إلى عمليات المراقبة السابقة واللاحقة لكل عملية انتخابية بدون جهد زائد ولا ذكاء خارق..

وجدت المشرفين والمراقبين وهم يؤدون عملهم في ارتياح تام لأن كل شيء محسوب بدقة، ليس فقط عدد ساعات عملهم، ولكن كذلك تفاصيل دخولهم وخروجهم، حتى مراعاة المقاعد التي يجلسون عليها لمقاييس الأمن والسلامة العالمية..

رأيت انتخابات رئاسية وبرلمانية في تلك المُجمعات الانتخابية، ورأيت كذلك انتخابات النقابات والمحليات والأندية والجامعات، رأيت المجمعات الانتخابية وقد أصبحت جميعًا مراكز للدراسات، تخرج منها التقارير والتحليلات وتعقد فيها الاجتماعات والمؤتمرات..

رأيتها وقد تحولت جميعها من مراكز للتكلفة تُحَمِّل البلادَ أعباءً ومصروفات إلى مشروعٍ قومي يدر عائدًا وأرباحًا لخزينة الدولة..

رأيتُ النتائج النهائية تُعلَن منها بشكل واضح لا يحتمل الشك ولا التخوين، ورأيت فرحة الفائزين وخيبة أمل الخاسرين، ولكني لم أرَ مع ذلك الشك في عيون أي من الموجودين، رأيتهم جميعًا وقد انصرفوا يفكرون في كل شيء إلا في نزاهة الانتخابات، فهذه قد أصبحت قضية محسومة في مصر لا تحتمل حتى مجرد التفكير، ذلك أن مصر قد أصبح لها، بشهادة كافة أهل الأرض، نظام إنتخابي لا يُخترق وغير قابل للتزوير.

رأيت كل ذلك في رأسي، و لم أكن لأراه واضحًا جليًا هكذا لولا أنني تحدثت كثيرًا وكثيرًا عن فكرتي مع نفسي ومع الناس.. الحمد لله.. والآن، جاء وقت ما كنت أخشاه، جاء وقت المبدأ عميق المعنى والمنطوق، إنه وقت المبدأ الخامس للتفكير خارج الصندوق!

حَدَثَ في يومِ الجُمُعة

وصل صديق الطفولة من كندا إلى مصر في زيارة قصيرة، رغم أنه لم يبلغ بعد الأربعين فإنه يُعَد واحدًا من أهم عُلماء الاقتصاد في العالم، آخر مرة قابلته فيها كانت في باريس منذ حوالي عشر سنوات، ولم ألتق به بعدها إلا في صباح تلك الجُمعة لأجده تمامًا كما هو لم يتغير، أنيقًا، وسيمًا، شارد الذهن، حسن الخُلُق، خفيض الصوت، عبقريًّا في الاقتصاد، مصري الأصل، كندي الجنسية، مُسلِمًا.. ولا يُصَلّي!

كان صديقي قد أرسل لي إيميلًا ليبلغني فيه أنه سيصل مصر في صباح يوم الجمعة الأخيرة من ذات الشهر في زيارة عمل سريعة، ذلك أنه مرتبط بسلسلة من الاجتماعات ما بين مساء الجُمعة حتى صباح السبت، ليطير بعدها وفي نفس اليوم إلى جبال الألب حيث المنتجع الساحر في المدينة الصغيرة التي تقع على نهر لاندويسر بسويسرا، إنها دافوس، حيث يعقد المنتدى الاقتصادي العالمي، والذي سيكون فيه صديقي كالعادة من أبرز وأنشط المشاركين..

صديقي يعيش على طائرة كما يقولون، يُلقي المحاضرات في العديد من الجامعات والمعاهد المرموقة على مستوى العالم، ويقدم خدماته الاستشارية لمؤسسات وحكومات عديدة، تعتبر الكرة الأرضية هي موطنه الفعلي، إلا أن له زوجة وأبناء يعيشون في كندا وكما قال لي في إحدى مكالماتنا السابقة: «لم تسمح ظروفي أن ألتقي بهم كثيرًا هذا العام»! اتفقنا أن نجلس معًا أربع ساعات متواصلة في صباح يوم الجمعة نتذكر أيام الطفولة، وطبعًا سيمتد بنا الحديث كالعادة إلى الإدارة والاقتصاد، فالحديث معه دائمًا شيق ومُرهِق!

أنهيت حصتي الصباحية من التمرينات الرياضية سريعًا وذهبت إليه في صباح يوم الجمعة كما اتفقنا، أخبرني ونحن نتناول الإفطار أنه يعمل على نظرية اقتصادية منذ سنوات ويحب أن يناقشها من عدة زوايا كلما سمحت الظروف، فكانت فرصة ممتازة بالنسبة لي أن أستمع لأفكاره وأتعلم منها، ولا أعتقد أنني أضفت له شيئًا، فلعله كان يتكلم عن أفكاره حتى يراها، نظرت في الساعة فوجدت أنه لم يتبق إلا 15 دقيقة على صلاة الجمعة!

علمني أستاذي أن الطريق إلى الله بعدد أنفس البشر، وحذرني من تضييق واسع، وأن الحكم على قلوب الناس هو فقط لرب الناس، ويعلم الله أنني لم أحكم في حياتي على ما في قلب صديقي ولا غيره، ولم أتدخل أبدًا بين أحد وبين ربه، إلا أنه صديق طفولتي، وأحب له ما أحب لنفسي، تكلمنا صغارًا وكبارًا فيَّ كل شيء وبكل صراحة وبلا حدود، إلا أنه لم يعطني أبدًا الفرصة للتكلم معه في أمر الصلاة، هو ببساطة لا يُصلي منذ أن كنا أطفالًا، ولا أعرف سببًا منطقيًّا لذلك، فهو من عائلة كريمة وسطية التدين كأغلب أهل مصر، وكنت دائمًا إذا قُمت إلى الصلاة أستأذنه فيقول: «ادعيلنا معاك»، وعندما أرجع يقول: «تقبل الله».. لم يبد عليه يومًا أي انزعاج من فكرة الصلاة، ولكنه لم يُصلِّ أبدًا

أمامي، ويجوز أنه لم يُصلِّ أبدًا في حياته!

لم أدعه صراحةً للصلاة خلال صداقتنا الطويلة رغم ما بيننا من العشرة والعشم؛ ذلك لأني كنت أرى في عينيه نظرة مهذبة ولكنها صارمة تمنعني من اقتحام تلك المنطقة معه، لم أتخيل يومًا أنني أقرب إلى الله منه، الحمد لله، فلم أقترف يومًا هذا الإثم، وإن كنت قد اقترفت غيره الكثير.. يا رب سَلِّم.. ولكني تعلمت صغيرًا أن المسلم لابد وأن يصلي خمس مرات في اليوم والليلة، وأن الصلاة هي الصلة مع الله، ومن اتصل بالله سعد ونجح وفاز، فهي راحة العقول والقلوب، وكان النبي ﷺ يقول: أرحنا بها يا بلال. وقد وجدت الخير كل الخير في الاستقامة على الصلاة.. وأنا أحب لصديقي ما أحبه لنفسي.. فقلت في نفسي: «إيه اللي هايجرى يعني؟» وقررت أن أعرض عليه أن يُصلي الجُمعة معي، وإن رفض سأحترم ذلك واستأذن للصلاة ثم أعود لتوديعه لأنني غالبًا لن أستطيع مقابلته في اليوم التالي ويعلم الله متى وأين سنلتقي بعد ذلك اليوم..

كان يشرح لي مستقبل الرأسمالية العالمية من وجهة نظره وعلاقتها بنظرية اليد الخفية فاستجمعت شجاعتي وقلت له: «ما تيجي نقوم نصلي الجُمعة ونرجع على طول».. ففاجأني برد فعله غير المتوقع، وقف بسرعة وأخذ تليفونه المحمول وكارت باب غرفته في الفندق من على الطاولة وقال: «يااه تصدق إني ماصلتش من حوالي 30 سنة، ماشي، هاروح أتوضى واجي معاك»!!

جلست أنتظره وهو يتوضأ ولم أكن مستوعبًا لحقيقة ما حدث، هكذا ببساطة؟ ولماذا إذن لم أدعه من قبل ما دام الأمر بهذه البساطة؟ سبحان الله، كل شيء نصيب..

ذهبنا لأقرب مسجد من الفندق سيرًا على الأقدام، أنا لم أصلّ من قبل في ذلك المسجد، كانت زاوية صغيرة ولكنها الأقرب للفندق وكان وقت الأذان قد حان بالفعل فلم تكن هناك فرصة للذهاب لمسجد كبير، هذه مغامرة غير محسوبة، فقد تكون سجادة المسجد غير نظيفة أو هناك أي شيء يعكر صفو تلك المبادرة التي لا أريد بها أي مفاجآت؛ فهذه التجربة إذا مرَّت بسلام فقد تتغَيّر وِجهة نظر صديقي في أمر الصلاة بوجه عام!

الحمد لله، السجادة نظيفة ورائحة البخور الهادئ في المسجد تُنبئ بالخير، ترك صديقي حِذاءه الذي لا يقل بأي حال من الأحوال عن الألف دولار في الشارع ودخل المسجد بكل براءة، ولأنني كنت على يقين أن الحذاء إذا تُرك هكذا فإنه سيُسرَق حتمًا حتى ولو كان شبشب بلاستيك، فقمت وخرجت بوقار من المَسجد وأخذته ووضعته في مكان آمن تمامًا أمامي، رأيت الاستغراب على وجه صديقي ولكني اكتفيت بالابتسام والنظر للشيخ ذي الوجه المُريح والعباءة البيضاء النظيفة واللحية المهذبة الكثيفة وهو يعتلي المِنبر حتى استوى، ثم قال: «السلام عليكم»، وبينما كنا نَرُد السلام سَمعنا الأذان ينطلق بصوت جميل ولحن وقور فاستبشرت خيرًا وقلت في نفسي: «إن شاء الله جمعة مباركة وبداية خير»..

هناك أشكال عديدة للتواصل بين الناس، لكل منها عناصر معينة تميزه وتحكمه، وإذا غابت معرفة تلك العناصر عن الإنسان العادي نشأت عنده مشكلات لا حصر لها نتيجة الخلل في التواصل مع مجتمعه الصغير والكبير، ومن أهمها عشرة أشكال رئيسية، وهي:

الخطبة والخطاب، والسؤال والجواب، والنقاش والجدل، والبيان والمَثَل، والمحاضرة والمناظرة..

ولأنني كنت جالسًا في المسجد أتعرض لواحدة من تلك الأشكال، وهي الخُطبة، فلم أستطع أن أمنع نفسي من استحضار العناصر الثلاثة الأساسية التي إذا التزم الخطيب بها في خطبته وصلت الرسالة وعمت الاستفادة، خاصة أن تلك الخُطبة كانت هي الأهم بالنسبة لي، فقد تكون هي الباب الذي سيدخل منه صديق العُمر للصِّلة الدائمة مع الله، الصلاة، فتمنيت أن يلتزم الخطيب مبدئيًّا بالعنصر الأول من عناصر الخطبة النموذجية.

ولكن أتت الرياح بما لا تشتهي السُّفن!

إن أول عناصر الخُطبة الثلاثة، أو كما يسميها أستاذي الثلاثة ميم، ذلك لأنها جميعًا تبدأ بحرف الميم، هو (موضوع الخُطبة)، ذلك أن يكون موضوع الخطبة مناسبًا للموقف والحضور ويكون الخطيب متمكنًا منه.. ولكني لم أتوقع مهما كان حظي سيئًا أن يختار الشيخ ذلك الموضوع ليتكلم فيه في خُطبة الجمعة، الاقتصاد!!

لقد جئت وكلي أمل في سماع آيات وأحاديث الرحمة والمغفرة، كنت أنتظر الحديث عن التقوى وحُسن الخُلُق، ولكن الشيخ جزاه الله خيرًا كان قد اختار من بين موضوعات الدنيا أن يتطوع في تلك الخطبة بالذات ليحل مشكلات مصر الاقتصادية!

قام الشيخ الذي ظهر من لغته وأسلوبه وهيئته أنه -غالبًا- ليس أزهريًّا باستخراج قصاصة لمقال من جرائد ذلك الصباح من جيبه، وبدأ يقرأ علينا مقالًا مُمِلًّا بعنوان: اقتصاد مصر!

بدأ الشيخ جزاه الله خيرًا في شرح المقال، والذي لا أستطيع بأي حال من الأحوال أن أصف أغلب ما جاء فيه إلا بأنه هراء، وإن كان الذي كتبه يدعي العلم بالاقتصاد، فما بالي بما قاله الشيخ نفسه في تعليقه على المقال والذي ظهر منه جليًّا أن علاقتة بالاقتصاد ليست أفضل من علاقتي بعلم الهندسة الوراثية.. وهذه لم تكن المشكلة الحقيقية بالنسبة لي.. فأنا قد اعتدت على مثل تلك الابتلاءات في ظل منظومة العشوائية الإدارية التي نعيشها في بلدنا الجميل منذ عقود، ولكن المصيبة في صديقي، هذا الذي توضأ على المكاره، وقرر الصلاة بعد غياب دام أكثر من ثلاثين عامًا وجاء لربه ماشيًا، فإذا بالشيخ يستوقفه ليحل جميع مشكلات مصر الاقتصادية، وهو لا يعلم يقينًا أن بعض المشكلات التي تفضل جزاه الله خيرًا بالتصدي لها أثناء الخطبة، لم يتفق فُحُول الاقتصاد في العالم على طريقة تشخيصها فضلًا عن حلها من الأساس، ولا يعلم بطبيعة الحال أن واحدًا من أعلم أهل الأرض في الاقتصاد هو مصري الأصل، كندي الجنسية، وموطنه الفعلي الكرة الأرضية ويجلس الآن تحت قدميه!

صديقي إنسان خلوق فعلًا وهادئ الطبع، ولكن يبدو أن الأمر كان قد تعدى حدود صبره عندما قال الشيخ: «أنا مش عارف الناس دي محيرة نفسها ليه؟ هم يلموا فلوس قناة السويس والسياحة باليورو وخلاص، شوف بقى ساعتها الدولار هايبقى بكام؟ صعبة دي؟ لكن هاقول إيه.. حسبي الله ونعم الوكيل»..

هنا تدخل صديقي عالم الاقتصاد الفذ ونظر لي وقال: «إيه الكلام ده؟ هو الراجل ده

بيقول إيه؟»..

طبعًا صديقي ليس خبيرًا بثقافة المساجد وخاصة بفكرة عدم اللغو أثناء خُطبة الجمعة؛ لذلك شرع في فتح مناقشة اقتصادية معي أثناء الخطبة وقد بدت على وجهه الطيب علامات الانزعاج، ولما بدأ المُصَلون من حولنا في النظر إلينا بطريقة غير مطمئنة همست في أذنه: «أبوس رجلك اسكت دلوقتي وهابقى أفهمك كل حاجة بعدين، كلها عشر دقايق ونتكلم براحتنا»؛ ذلك لأنني عندما أدركت ضياع العنصر الأول من الخُطبة حمدت الله الذي لا يحمد على مكروه سواه واسترجعت، وكان رهاني وأمنيتي الغالية هو التزام الشيخ بالعنصر الميمي الثاني وهو: (مُدة الخِطاب).

كم كنت ساذجًا!

لكل شكل من أشكال التواصل حد أقصى من الوقت لا يجب أن يتعداه المتكلم وإلا فقد الطرف الآخر تركيزه وانعدمت قيمة التواصل، فنجد أن في النقاش والمناظرات مثلًا يمكن أن تمتد لساعات، بينما المحاضرة لا يُنصح بأن يتعدى زمنها 45 دقيقة متواصلة إلا إذا تخللها نقاشات، فيمكن عندئذ أن تصل بحد أقصى إلى 75 دقيقة متواصلة، بينما البيان المكتوب يفضل ألا يتعدى زمن قراءته 5 دقائق، وأما الخُطبة فلا يجب بأي حال من الأحوال أن يتعدى زمنها 15 دقيقة متواصلة..

هناك أبحاث جادة في موضوع مُدة الخُطبة، ومما زادني ثقة في نتيجة أغلب تلك الأبحاث أنني قمت باختبار بعضها عمليًّا، فجئت بعشرات الخطب الشهيرة من التراث الإداري العالمي، بل أكثر من ذلك، لقد جئت بثلاث خُطَب للنبي محمد ﷺ وقرأتها بهدوء، وبعد قياس المدد الزمنية لها جميعًا وجدت أن أيًّا منها لم يتعد الخمس عشرة دقيقة، بل إن منها ما كان أقل من ذلك بكثير.. صحيح أنه كانت للنبي الكريم أحاديث تمتد لساعات وساعات مع الصحابة الكرام، ولكن كان هذا مقام درس وموعظة ومحاضرة وليس مقام خُطبة.. والفرق كبير!

ولخصوصية خُطبة الجمعة من أن جميع البالغين من رجال المسلمين عليهم حضورها وجوبًا من أولها حتى انتهاء الصلاة، ومع ما في هذا الجمع الكبير المتنوع من مختلف الأعمار والأعذار، منها ما هو صحي ونفسي ومنها ما قد يتعلق بارتباطات عمل واجتماعيات، فكان الأولى أن تكون مدتها أقل من أي خُطبة أخرى، ولكن كان للشيخ جزاه الله خيرًا رأي آخر، فقد انتهى من الخُطبة الأولى بعد 75 دقيقة ثم جلس في خشوع لجلسة الاستراحة!

عادة أتلو دعاء سيد الاستغفار في وقت جلسة الاستراحة، ولكنني كنت مشغولًا بعدم النظر لصديقي، فجعلت أنظر إلى سقف المسجد والمصاحف المصفوفة على المكتبة الصغيرة التي أمامي وعلى حذاء صديقي.. أين الحذاء؟ لقد اختفى الحذاء ذو الألف دولار.. نظرت بسرعة إلى صديقي بجواري فلم أجده هو الآخر!

علمت بعدها أن صديقي العزيز قد أخذ حذاءه وعاد إلى الفندق أثناء الخطبة الأولى بينما كنت أتحاشى النظر إليه!

لم أجد لومًا في قلبي لصديقي، خاصة أن الشيخ جزاه الله خيرًا لم يُضَيّع العنصرين

الأول والثاني من عناصر نجاح الخطبة وحدهما (موضوع الخطبة) و(مُدة الخطبة) ولكنه جزاه الله خيرًا كان قد أضاع بامتياز ومن أول لحظة في الخطبة العنصر الميمي الثالث والأخير وهو (مُلاءمة درجة الصوت)..

فلقد كان يضع، سامَحَه الله، الميكروفون على فمه مباشرةً، ليس بينهما حجاب، بينما يصرخ فيه كالغريق الذي يطلب النجاة!

وانتهت الخطبة، وكنت أظنها لن تنتهي أبدًا، وأقيمت الصلاة ليصلي بنا الشيخ ركعتي الجمعة بعد تلك الخطبة الفريدة بقصار السور (والعصر) و(قل هو الله أحد)!

خرجت من الزاوية بعد الصلاة مُرهَقًا مُشَوشًا مَقسوم الظهر، نفسيًّا وبدنيًّا، وبينما كنت أسير مهزومًا من المسجد إلى الفندق فتحت تليفوني الذي كنت قد أغلقته كعادتي في أوقات الصلاة فوجدت رسالة نصية من صديقي:

«Sorry my friend, I had to go.... See you when I see you!»

على الرغم من قسوة ما حدث في يوم الجمعة فإنني حاولت جاهدًا بعدها أن أخفف من أثرها على صديقي وأدعوه لإعادة النظر في أمر الصلاة بوجه عام وصلاة الجمعة على الخصوص، فأرسلت إليه إيميل أوضح له فيه أن ما حدث كان خطئي أنا، وأنه كان يتعين عليَّ أن أصطحبه لمسجد أعرفه وأعرف طبيعة من يخطب فيه، وأن مصر تعاني من تخبط إداري في كل شيء وقد امتد بطبيعة الحال لبعض المساجد والزوايا، وحاولت أن أشرح له حلاوة صلاة الجمعة في مساجد مصر الكبيرة العريقة، وشرحت له أن تلك الخطبة الطويلة ليست الأصل، وأنه إذا كتب الله له صلاة جمعة في أحد الحرمين فسيجدها قصيرة وخفيفة وغنية، وليس ذلك إلا امتثالًا لهدي النبي ﷺ، بل شجعته على صلاة الجمعة في مسجد الحسن الثاني بالمغرب الذي قال لي إنه ينوي زيارتها بعد مؤتمر دافوس، وتماديت في وصف مسجد الحسن هندسيًّا وتاريخيًّا وجغرافيًّا وأنه يُعَد الأكبر في العالم بعد الحرمين المكي والنبوي..

إلا أنه رد على ذلك الإيميل المُطَوَّل المُفَصَّل بإشارة واحدة: سمايلي فيس !

ولكني مع ذلك حاولت أن أنظر للأمر من الزاوية الإيجابية، فهذا ما وصاني به أستاذي مئات المرات، ولا أدري كم عدد المرات التي حكى لي فيها حكاية سيدنا المسيح عندما كان يسير مع تلامذته في الطريق فوجدوا كلبًا ميتًا منتفخ البطن وله رائحة كريهة فقال لهم: ولكن انظروا إلى بياض أسنانه!

نعم، فكل موقف صعب يمكن أن يكون في صالحنا إذا نظرنا للجانب الإيجابي منه، وهذا فعلًا ما وَقَر في قلبي بعد حادثة صديقي وخطبة الجمعة، لقد شعرت أنها رسالة، فبينما أنا على وشك العمل على المبدأ الخامس من مبادئ التفكير خارج الصندوق يحدث لي ذلك الموقف الصعب، ولعلي لم أكن لآخذ ذلك المبدأ بجدية لولا ما حدث من الشيخ في تلك الخطبة وما كان له من بالغ الأثر على حالتي النفسية، يمكن لطبيعة عملي واهتمامي بمهارات التواصل كنت سأتساهل في العمل عليه، ولكن تلك الحادثة كانت سببًا بفضل الله لأن أُدرِك فِعلاً قيمة وأهمية المبدأ الخامس للتفكير خارج الصندوق الذي يقول:

(إنما تُولَدُ الأفكارُ بِحُسنِ عَرضِها).

المبدأ الخامس

إن الفكرة مثل الجنين في رَحِم أمه، فلا يصير الجنين إنسانًا له اسم وكيان إلا بعد الولادة.. كذلك الفكرة، تصير فكرة حقيقية على أرض الواقع إذا أحسن صاحبها عرضها على المجتمع، فإذا فعل كانت كالجنين الذي خرج توًّا للدنيا وأصبح مولودًا مكتمل النمو ومستعدًّا للمسير في مشوار الحياة..

ومن هنا جاءت فلسفة المبدأ الخامس للتفكير خارج الصندوق، فإذا قرر الإنسان أن يفكر خارج الصندوق فإنه يذاكر الواقع جيدًا قبل التمرد عليه، ثم يفصل التفكير عن التنفيذ، فعندما يبدأ في إنتاج الأفكار يبحث عن الأبسط والأسهل بينها ليجدها غالبًا أعظم الأفكار، ثم يبدأ في التحدث عن الفكرة التي استحوذت عليه وظنَّ فيها الخير، يتحدث فيها مع نفسه ومع الناس كثيرًا حتى يراها وكأنها واقع ملموس، فعندما يرى الإنسان فكرته فعلاً، يأتي وقت المبدأ الخامس، وقت ولادة الفكرة وخروجها للمجتمع، وقت حُسن العرض.. فإنما تُولَدُ الأفكارُ بِحُسنِ عَرضِها!

ولما كان موقف صديقي عبقري الاقتصاد وخطبة الجمعه قد أثّر فيَّ بالغ الأثر، فإنني وجدت الارتباط الوثيق بينه وبين المبدأ الخامس للتفكير خارج الصندوق، فلقد كان للشيخ فرصة عظيمة لإضافة صحيفة أعمال صديقي وكثيرين غيره إلى ميزان حسناته، وما كان عليه إلا حُسن اختيار الموضوع وتأكده من درجة تمكنه منه ثم ليس عليه بعد ذلك إلا حُسن العَرض، ولكن لعل ذلك الشيخ لم يتحصل على تعليم جيد أو قد يكون عنده ما لا يعلمه إلا الله من الأعذار التي حالت بينه وبين معرفة أساسيات الموقف الذي تصدى له، ولكن أنا، لن يكون لي عذر إذا تساهلت وقصرت في حسن عرض فكرتي، فهذا هو تخصصي الأصلي ومجال عملي، وإن لم آخذ الأمر بجدية وأضع خطة حقيقية لعرض فكرتي على صُنّاع القرار والرأي العام فإنني بذلك لن أكون فقط قد أضعت المبدأ الخامس للتفكير خارج الصندوق، بل سأكون بذلك كمن قتل جنينًا بالقصد بعد أن حملته أمه وهنًا على وهن.. وبعد ذلك المشوار الطويل الشاق من إنتاج الفكرة والعمل عليها لابد لي من التركيز في الإجابة عن الأسئلة الخمسة الشهيرة والتي يتعين على أي إنسان الإجابة عنها قبل عرض فكرته، أو الماهيات الخمس كما يسميها أستاذي:

1- ما الجهات التي يجب عرض الفكرة عليها؟

2- ما وسيلة العرض الأنسب لكل جهة منها؟

3- ما النقاط الأساسية التي يجب أن يحتوي العرض عليها؟

4- ما لغة الخطاب الأنسب لكل عرض؟

5- ما المُدة الزمنية لكل عرض؟

لم تكن الإجابة عن الأسئلة الخمسة سهلة بالنسبة لي.. وإنما أمضيت ثلاثة أسابيع متواصلة أعمل على تحديد كل جهة يجب عليَّ عرضُ فكرتي عليها، وبعد ذلك بدأت أعمل

على عرض كل منهما على حدة، فحديث الإذاعة كان مختلفًا عن اللقاء التليفزيوني، وهما بطبيعة الحال مختلفان عن تصوير مقاطع عن الفكرة للعرض من خلال اليوتيوب، وكذلك تصميم محاضرة عامة كان له آليات مختلفة عن التحضير للاجتماعات المغلقة مع من أطلب دعمهم من الشخصيات العامة ومتخذي القرار.. وبدأت في ترتيب المواعيد، وفرَّغت جدولي بعدها لمدة أسبوعين كاملين لحساب عرض الفكرة، بحيث أكون جاهزًا في كل وقت يتم استدعائي فيه لنقاش أو مناظرة أو محاضرة عن فكرتي التفصيلية في إنشاء نظام انتخابي مصري خالص لا يُخترق وغير قابل للتزوير.. وبدأت في العروض الفعلية في جميع الوسائل وعلى كافة الأصعدة والاتجاهات، وأعتقد -بفضل الله تعالى- أنني وفقت جدًّا فيها جميعًا، وكنت مع ذلك كل ساعة تقريبًا أفتح رسالة أستاذي وأنظر إليها جيدًا لأتأمل المبدأ السادس والأخير من مبادئ التفكير خارج الصندوق.. فلولا ذلك المبدأ ما صَمَدت فكرتي لحظة، ولا تحملت أنا ما حدث لي بعد أن قمت بعرضها!

المبدأ السادس

لقد رأيت من النقد والهجوم والتعريض بسمعتي وفكرتي ما لم أره في حياتي، ولكني مع ذلك كنت مُستعدًّا تمام الاستعداد، ولم تزدني تلك الحروب العنيفة التي خلت في أغلبها من الأساليب النظيفة إلا إصرارًا وثباتًا ونجاحًا، فقط لأنني بفضل الله اتبعت حرفيًّا ما وصاني به أستاذي!

فقد قال لي أستاذي في آخر رسالته:

«يا ولدي، إذا ذاكرت الواقع جيدًا قبل التمرد عليه، وفصلت التفكير عن التنفيذ، وبحثت عن أبسط أفكارك لتجد أنها غالبًا أعظمها، وتحدثت عن فكرتك حتى رأيتها، وشاهدت ولادتها بعد أن أحسنت عرضها فلن يكون أمامك إلا المبدأ السادس، لا أريد منك عمل أي شيء غير أن تتذكر ذلك المبدأ وتضعه في قلبك، فبه يحفظك الله تعالى إن شاء من الضربات القاصمة..

فمن ضرب فجأة وهو غير مستعد قد تكسر عظامه نتيجة لعدم استعداده؛ ذلك أن عضلاته كانت في حالة استرخاء فلم تحل بينه وبين الضربة القاصمة، فيكون أثر الضربة بذلك مضاعفًا؛ لأنها أصابت العظام مباشرةً دون أن تجد العضلات المشدودة التي تصد جزءًا من أثرها، فما عليك إلا الاستعداد الذي يحميك الله تعالى به من أثر الهجوم والحروب، فلن يفكر أبدًا إنسان ويعمل من خارج الصندوق إلا وسيحارب ويُهاجم حتمًا ممن هم بداخل الصندوق، ولا تعتقد أبدًا أنك ستخرج من الصندوق في هدوء وسلام، فإن ذلك مناف لآثار الكبار والأعلام..

فاحرص يا ولدي على فتح الرسالة ولو لمرة واحدة في كل يوم بعد الانتهاء من العمل الجاد على المبادئ الخمسة السابقة، وتأمل بعمق في هذا الذي سينجيك الله تعالى به وينقذك وفكرتك إن شاء، إنه المبدأ السادس والأخير من مبادئ التفكير خارج الصندوق.. إنه المبدأ الذي يقول:

(فقط كن مُستعدًّا للحرب، فإنها قادمة حتمًا من داخل الصندوق)!

تمت بحمد الله،

القاهرة 2013

رسالة أخيرة إلى القارئ الكريم

إن هذا الكتاب يقدم نوعًا من الأدب تختلط فيه الوقائع والحقائق بالخيال، فلا يدري القارئ أيًّا من تلك الأحداث حدثت بالفعل وأيها لم يحدث، ونصيحتي لك أيها القارئ الكريم ألا تشغل بالك بذلك!

إنما أردت في رسالتي الأخيرة من هذا الكتاب الصغير الذي بين يديك أن أدعوك لقراءته أكثر من مرة، فهو قد كُتِبَ وأُعِدَّ كمًّا وكيفًا للقراءة ثلاث مرات على الأقل؛ مرة للتعرف على حكاية صاحب الحكاية مع أستاذه وما فيها من نظريات إدارية ومعانٍ صوفية وفلسفية؛ ومرة للتركيز فقط على المبادئ الستة للتفكير خارج الصندوق وحفظها وتدبرها؛ ومرة ثالثة لاستحضار- أثناء قراءة الكتاب- مشكلة حقيقية في حياتك والتفكير في حلها من خارج الصندوق ليكون لك عونًا بإذن الله في المسير على ذلك الدرب المنير.. وأدعوك في النهاية لأن تسمو بأفكارك فوق الحواجز والسدود، وأن تثق في عطاء ربك غير المحدود، فالأولون والآخرون على عطاء الكريم شهود، وألا تُطِع من قسا قلبه فأخبرك كَذِبًا أن الطريق مسدود أو أن الأمل مفقود.

إيهـاب فكـري

نبذة عن المؤلف

ن

د. إيهـاب فكـري

● هو باحث وكاتب في علوم الإدارة، يعد من أبرز الداعين لنشر فكر الإدارة الحديثة في مصر والعالم العربي، خلفيته الأكاديمية لم تكن هي العامل الوحيد لاهتمامه بعلوم الإدارة، فغير أنه حاصل على بكالوريوس إدارة الأعمال من جامعة عين شمس، ودرجة الماجستير في إدارة الأعمـال من الأكـاديمية العربيـة للعلـوم والتكنولوجيا، وكذلك درجة الدكتوراه في استراتيجيات التسويق من الجامعة الأمريكية بلندن، فإن له مع ذلك خبرة تنفيذية كبيرة من خلال توليه مسئوليات هامة على مستويات محلية وإقليمية ودولية مع أكبر المؤسسات العالمية والمتعددة الجنسيات.

● يكتب بأسلوب (أدب الإدارة)، ويعتبر أول من قدم نظرياته الإدارية في شكل روائي وأدبي غير مسبوق في مصر والعالم العربي، كمـــا يقدمها مـــن خـــلال مشـــاركاته الإعلامية ومقالاتـــه الصحفيـــة، فضـــلا عـــن المبـــادرات الوطنيـــة والاستشارات الإدارية والتدريب والمحاضرات العامة.

● إيهاب فكري من مواليد سنة 1971، ويعيش مع أسرته في القاهرة.

● للتواصل مع الكاتب ومتابعة أعماله:

www.facebook.com/dr.ihab.fikry

Ihab.fikry@yahoo.com